وحدك

(حدوتة نفسية بالعامية المصرية)

-أحمد علي-

وحدك (حدوتة نفسية بالعامية المصرية)
المؤلف: أحمد علي

تدقيق لغوي: آية النزهي
تنسيق وإخراج داخلي: لخضر بن الزهرة
تصميم الغلاف: إسلام مجاهد
رقم الإيداع: 1594 / 2020
الترقيم الدولي: 978/977-6793-05-7
الطبعة الأولى: 2020
رئيس مجلس الإدارة: أ. د. محمود محمد السعيد
المدير العام: هالة البشبيشي

بريد إلكتروني: info@alhalapublishing.com
تليفون : 01110161117
العنوان: 26 ش 261 المعادي الجديدة
صفحة الفيسبوك: مركز الهالة الثقافي
https://www.facebook.com/alhalapublishing

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطيٍّ من الدار.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، و لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار النشر.

وحدك

(حدوتة نفسية بالعامية المصرية)

أحمد علي

«تجاهل أولئك الذين يُسببون لك الخوف والحُزن،
الذين يُحيطون بك نحو المرض والموت»

–جلال الدين الرومي–

الإهداء

إلى الذين يُعانون الوحدة،
ويتخذون من النوم سِتارًا يختبئون خلفه خشيةً من السؤال...

إلى مَن يشعر بالوحدة رغم الزحام...

إلى مَن يجدون في العُزلة راحتهم...

إلى الذي ما زال و اقفًا ولكنه من الداخل قد تهشم...

إلى من جاهد، واجتهد حتى لا يميل لأنه جدار للآخرين...

طبتم وسلام الله عليكم
حتى يتدخل القدر ويُزيل ما مَر بكم وعَبر وشَق وترك الأثر،
ولَم يشعر به البشر.

***

قبل البداية

جميعنا يُعاني من أرق نفسي.

في حقيقة الأمر كلنا مرضى نفسيين بنحمل نِسب ودرجات مختلفة بتميزكل واحد فينا عن الآخر.

كلنا نفسنا نحب ونتحب وخايفين من الحُب وده في حد ذاته مرض الرغبة والخوف في نفس الوقت، مرض لأنه شيء من التضاد ضِد اكتمال المعنى أو الوصول للهدف.

كلنا محتاجين شخص واحد على الأقل نفضفض معاه ويسمعنا من غير ما نحس إننا عبء عليه، لكن مش قادرين نكشف نفسنا قدامه؛ لإننا بنحس وقتها إننا بنتعرى.

كلنا بنخاف من الضَعف والكسرة فنتصنع بعكس اللي جوانا وده مرض، نفسنا ناس تسأل عننا من غير مصلحة أو طلب أو لغرض، محتاجين الشخص اللي يحلي الكون فـ عنينا، لكننا رافضين إن حد يدخل المنطقة دي في حياتنا.

كل ده مرض!

مين فينا مش محتاج ناس تقتحم قلبه بدون تلميحات، حد يجبره باهتمامه على الثرثرة معاه، شخص يحجب عنه فكرة إن الخوف ممكن يطوله في يوم من الأيام في وجوده.

يمكن الناس دي موجودة قريب منا، لكن لسوء حظنا أو حظهم إن عندهم حساسية مُفرطة وشعور بالثُقل على اللي بيحبوهم،

فبيفضلوا مكانهم منتظرين القرب، والطرف التاني منتظر القرب، فبالتدريج بنستغنى عن بعض.

زي ما الست قالت: بعيد عنك حياتي...!

تفتكروا العذاب ده مش مرض؟

المرض ليه ألف صورة غير المُعتاد عليها، يمكن أبسط صورة بتكمن في المرض العضوي.

كل واحد مننا الظروف بتعمل منه شخص مختلف عن غيره في طباعه وطريقة تفكيره بشكل عام.

الاضطراب النفسي بيحولك وبيكون جزء جديد من شخصيتك بالتدريج بدون ما تحس، الناس بتبدأ تتعامل معاك بناءً عليه.

فجأة تلاقي نفسك عصبي، بتميل للوحدة والضلمة، مودي زي الفصول الأربعة بتتغير من وقت للتاني، مبتحبش تتكلم، لكن الناس ميعرفوش إن الساكت ده أكترواحد بيتكلم من جواه!

طبيعي ما يعرفوش انت فيك إيه، بلاش تلوم حد؛ لأنهم مش من أصحاب الحاسة السابعة، فمتستغربش انتَ وتعمل فيها مقطع السمكة وديلها.

سكوتك المستمرورغبتك في العُزلة بيديهم دافع ورغبة في البُعد عنك، ومن هنا بتبدأ تستنتج إنك شخص غير مرغوب فيه بالمَرة؛ لإنك أحُادي الرأي من البداية، بتشوف وترتب الأحداث بناءً على تصورك المحدود انتَ، بتقسى على كل شيء قريب منك بدون ما تحس، وبتبدأ تتعلق أكتربالجماد، بالبيت، بالليل، بالضلمة، بالورق

والكُتب والنهايات المحفورة جواك بتاريخها وتاريخ موتها المُفزع.

بيظهرلك ميول في البُعد عن كل حاجة فيها روح أو حركة، بالنسبالك بتكون مصدر إزعاج بتهدد أمنك وسلامك، عكس الحالة اللي انت بتدوَر عليها تمامًا.

وواحدة واحدة تبدأ توصل لفكرة إن الكون كله بيخلص بالموت، فيصيبك هوس إن بمجرد موتك انتَ الكون كلهُ بينتهى، فتقرر انك تنهيه بشكل انت مقتنع بيه مليون في المية، وده نتيجة بُعدك عن الأفكاروالناس اللي بتعيش معاك في المجتمع، وخجلك من المواجهة والاعتراف، إتخلص من كل اللي فات ده لإنك هتكون أشد الناس عُرضة للاكتئاب والانتحار.

ربنا لمَّا وجد الكون وجد فيه سيدنا آدم من البداية، وعالِم إن آدم غيرقادرعلى إنه يتعايش وحده مفردًا في الكون؛ فخلق الونس له السيدة حواء، ومن هنا بدأت فطرة التعايش مع الناس، وإن العُزلة ضد الفطرة دي، تقدرتقول مبادئ وقو انين ربنا حطها في الكون، اللي يخالفها يبعد عن المعنى الحقيقي للحياة، هل ده اللي انت بتتمناه؟

معتقدش!

الوِحدة تؤدي إلى الموت، وليس للموت تقنين، مَن يفقد شغفه فقد مات جزءً فيه، ومَن فقد صديق، ومَن فقد حُب، ومَن فقد عمل، ومَن فقد عِلم، ومَن فقد شريك كل ذلك موت، كل ذلك ناتج من الوِحدة فهي لا تقل خطورة عن الرُصاص فكلاهما يؤدي إلى الموت، بطريقة ما.

ومع الوقت بنصحى على خبر انتحار فلان الفُلاني!

للأسف كتير مننا مش بياخد باله قد إيه الناس بتعاني قبل موتها من الوِحدة، ده كمان فيه ناس بتطلب ده من أقرب الناس ليهم إنه محتاجين حد يقرب منهم ويسمعهم، لكن في الغالب محدش بيستجيب، بنفوق ونعرف إننا كنا مقصرين بعد فوات الأوان، بعد موتهم، وقتها بنقول كل اللي كان نفسهم يسمعوه، لكن للأسف بعد ما رحلوا عننا.

الناس اللي غابت عننا وماتت متأثرة بالفقد والعُزلة، لو كنا عبرنا عن حُبنا ليهم وهُمَ وسطنا وعايشين كنا وفرنا عليهم كتير، على الأقل كانوا عاشوا مبسوطين أطول فترة ممكنة، لطفًا متستنوش الناس تغيب وتمشي وبعدين تعترفوا بقيمتهم في حياتكم، حسسوهم ده وهُمَ قادرين يسمعوه، هتفرق كتير والمشهد هيختلف والله.

مش عيب إنك تقول أنا تعبان ومش مبسوط، العيب إنه يحصل العكس.

التنمر!

لَم يكن التنمر مشروطًا بالقول، فالنظرة تنطق وتُعبر، ولَم يكن الغرق مشروطًا حينذاك بالماء، فالخذلان يُغرق ويقتل.

الناس غالبًا يستخدمون نظرات شديدة الركاكة، تجاه أسمر اللون، أو سمين البدن، أو مُصاب بحرق أو بُهاق أو بَرص، مسميات لا نهاية ولا حصر لها، أو شخص مصاب بضعف نفسي واضطراب، وفي حقيقة الأمر هؤلاء الناس هم أشد إيذاءً بنظراتهم أكثر من المرض

ذاته.

المشكلة في مجتمعنا إنه بيجرّم الاعتراف بالمرض النفسي، وده تأثيره أشد من المرض ذاته، واللي بيقول غيركده بيكون على منصات العِلم وفي الأبحاث العلمية والمناسبات العامة وبس!

إنما في الحقيقة المريض بيتكسف يقول إنه مريض نتيجة الأفكار المشوهة، ولو تماسك وقال بكل شجاعة أدبية؛ المُستمع والمجتمع بيسخر منه على طول.

كأنه عيب مثلًا، أو شيء يشبه الشذوذ الجنسي، ويحسسوك بالنقص تجاه نفسك، وما هو إلَّا نقص فيهم تجاه أنفسهم.

تستشف من كلامهم ونظراتهم كأنه ما ينفعش أبدًا تتكلم عن وجعك أو تعترف بيه قُدام الناس على الملأ كده، علمًا بأنه شبه موجود في فرد في كل أُسرة بدون ما نحس، ولو قُلت لحد انك مريض وتعبان نفسيًا، تصبح بالنسبالهم بقدرة قادر مادة دسمة للسخرية، والناس تبعد عنك كأنك مصاب بمرض مُعدي مُميت.

وقتها نظرتك للحياة بتتغير، وبتشوف الناس في صورة أشد وحشية، وده اللي بيخلي الشخص مختفي عن عيون الناس لإنه خايف يواجههم، و اتولدت جواه أفكاركلها ضده من الناس بتحسسه بالنقص تجاه نفسه وكأنه تقصير منه عن عمد.

وقتها اوعى تميل للعُزلة والوِحدة، وقاوم مهما كلفك الأمر من صبر، إبني سيرتك الذاتية بإصرارك وتحملك وخلي اسمك مقرون بالقوة عشان تهزم ضُعاف النفس وتستمر.

في فرق بسيط أوي ما بين النجاح والفشل اسمه التمسك بالأمل، وده بيزيد وبيقل على قدر اجتهادك و إيمانك أيًا كان معتقدك، فعندما نفقد كل أمل علينا ألّا نيأس (لوكيوس سينيكا).

يا ترى هي الكلمة ليها حواف ممكن تجرح زي السِكينة؟ ممكن تقتل يعني؟!

زي ما الميه ممكن تُستخدم كأقوى وسيلة قطع، الكلمة كمان بتجرح، زي ما السِكينة بتدبح، الكلمة هي كمان بتمَوت وموتها أبشع لأن الشخص بيتفرج على روحه وهي بتنتهي وبتتسلب منه واحدة واحدة وبيتكسر بخاطره وبيحس انه اتّقل منه قدام الناس.

زي ما الخوف بيحرمك من التجربة، المغامرة بتحسسك بالقوة، الفاصل في القراروقتها بيكون العقل والمنطق.

معاني مش قادرين إننا ندمجها ونوفقها مع بعض، كأنها تروس خِلف خلاف، عشان تكمّل بعضها لازم تفرم أي حاجة تيجي قُدامها.

العاطفة أقوى أَم السلاح؟

في الحقيقة اللي ربنا أوجده غير اللي الإنسان ابتكره، تأثير العاطفة لا يقل خطورة عن استخدام السلاح، وهو الآخر يقتل، و أيضًا يوفر الأمان.

«ديزموند دوس» ده كان مُسعِف في الجيش الأمريكي خلال الحرب العالمية الثانية، واللي خدم في معركة (أوكيناوا) ر افضًا قتل البشر تحت أي مسمى حتى خلال الحرب.

لكَ أن تتخيل، العاطفة كانت عند ديزموند مقدمة على السلاح،

كمان أصبح أول مستنكف سلمي في تاريخ العسكرية الأمريكية يتسلم ميدالية الكونجرس الشرفية.

لأن العاطفة عنده وسعادته كانت بتزيد في إنقاذ الروح، حتى لو الروح دي العدو الحقيقى له، هو مبيعرفش يعمل أي حاجة غير الحُب، و إنقاذ حياة شخص في تصوره حتى لو عدو.

الواحد مننا بيشوف الحياة بالألوان في اللحظة اللي بيدخل فيها جسمهُ الحُب، الحُب ده مخلوق غريب جدًا، بيظهر في حياتنا بدون مقدمات، بدون ترتيب أو مواعيد، لكن أعراضه بتبان علينا وبيلاحظها كل اللي بينا وبينه كلام، الحُب فضَّاح والله، لكنه قوة مش ضعف، شرف وشهامة مش خوف وفرار.

الحُب حاجة كده بنكتشف قيمتها وقت ما نخسرها، ودي ضريبة كل الحاجات الحلوة.

جدتي كانت ديمًا تقول: «إن جاتلك الفرصة تبت فيها ولو في غنى عنها، لأنها هدية من ربنا»، (جاية من الفراسة السرعة والانتهاز والفوز) بتظهر مَرة واحدة في العُمر.

الناس الكبيرة دي عليها نظرة سابقة للعلم بسنين، أحفاد الفراعنة بقى.

بالمناسبة الفُرص ملهاش تقنين، مش سهل ييجي واحد يعترفلك ويقولك بحبك.

كل حاجة حلوة بتحصل في حياتنا بيكون فيها حُب، حتى قُربنا من ربنا مبني على الحُب، الخوف منهُ حُب، عبادتك و انتماءك الديني

حُب، علاقتك مع أهلك والناس اللي قريبة منك حُب، حتى زعلك على الأموات بيكون بدافع الحُب، رأفتك بالحيوان حُب.

الحُب هو المخلوق الوحيد اللي بيدخل وبيصنع كُل تفاصيل حياتك بمجرد ما يتوجد فيها، وبيخلق معاه طقوس غريبة الواحد مننا بيغوص فيها لدرجة إنها بتكوّن جزء حقيقي من شخصيته، بتخلي الناس تستغربنا إحنا ازاي بقينا كده، ممكن تخليهم يشوفونا بمنتهى التفاهة والسطحية، عادي يعني لأنهم مبيمروش بنفس حالتك.

تفتكر كل الحاجات المهمة دي متستهلش مننا اننا نقوم ونبعد عن العُزلة بأنواعها، مفيش حاجة حلوة ينفع تعيشها وحدك، فبلاش تكون وحدك، لأن فيه ناس كتير نفسها تكون جنبك.

❁❁❁

البداية

استيقظت مروة على صوت الأب والأم كالعادة، قائلًا:

– انتِ سِت مُهمِلة

– و انتَ كمان معندكش إحساس بالمسئولية.

– أنا مش مخليكم محتاجين حاجة!

– لأ محتاجين، الراجل منكم وهو بيحاول يدخل قلب السِت، بيملى حياتها اهتمام، بيكون عامل زي ضلها ف كل مكان محاوطها، بيفرش في كل مكان ليها وعد، بيحسسها إن مفيش ف الكون غيرها،

لأ وأحيانًا بيناديها يا أنا، بيخليها ف ركن ميقبلش المقارنة بحد، كل ده لحد ما يتمكن ويدخل قلبها، مع إنك كنت واعدني متبطلش ده قبل الجواز!

– لا ده كان قبل الجواز.

– على فكرة الراجل كلمته وعد، قبل وبعد، ومفيش حاجة بتمنعه من إنه يوفي بوعده غير الموت.

– بعد الشر عليا.

– ميشوفش الموت شر غير الأشرار، متخليش بنتك تدور ع الاهتمام بره البيت، وبعدين ترجع تقول دي أخرة تربيتك يا سِت هانم، أنا مهما كنت قريبة منها، هتفضل محتاجة جزء كبير تحسه منك أنا معرفش أوصله ليها كواحدة سِت.

مروة سمعت الكلام بالحرف، واللي هُمَ ما يعرفهوش إنها كل مَرة بتصحى فيها على صوت خناقة بينهم!

بتتولد جواها أفكار تخليها كارهة الحياة، وقتها لا بتكون عارفة تتعامل مع حد، ولا قادرة حتى تعيش وحدها، صوت باباها ومامتها بيتحفر جواها وبيوصلّها إحساس بعدم الأمان.

لبست وقالت لمامتها بصوت هادي:

– أنا نازلة يا ماما المدرسة.

ما أصعب أن يكون الهدوء والثبات خارجيًا، ومن الداخل نتهشم ونتحطم.

أحيانًا إدعاء السعادة، يكون أسهل من توضيح الوجع، يكون أرحم من نظرات الشفقة، يكون أفضل من الثرثرة مع ناس لا يهمهم سوى الفضول، أحيانًا الصمت يكون هو الأكثر تعبيرًا عن ما نشعر به، ومدى الضجيج الذي يملؤنا.

ولا يُبالي لنا أحدًا، حينها ننضج وحدنا ونكتفي وحدنا ونعبر وحدنا، حينها لا نحتاج لأحد، فمَن تخلى وقت ضعفنا وكسرتنا وقلة حيلتنا فقد أهمل فينا، وليس هذا من الدِين.

أصبحت تصاحبها دموعها منذ خروجها حتى وصولها لباص المدرسة، إنها المعاناة، وكالمعتاد يهتم صديقها كريم بأن تجلس بجواره.

جو المراهقة بقى، كلنا عشناه، ماتكدبوش يا كدابين واعترفوا.

في مرحلة عظيمة كده ممكن نسميها الاستعباط (وهي المرحلة اللي بتسبق الكلام وبتقتصر على النظرات والتلميحات، أعتقد الوقت ده بيكون أعظم وأمتع بكتير من علاقات تمت فعليًا ونتج عنها خلاف).

– ازيك يا مروة.

– أهلًا.

– إيه مالِك.

– مفيش، ممكن ما تتكلمش معايا لو سمحت دلوقتي.

الواحد مننا بيُصاب بحالة من الصدمة لمَّا يكون متعلق بحد

أوي ويلاقي منه رد فعل غير متوقع، بيحس إنه شخص غير مُرحب بيه وبيقفل على نفسه أوي وكأنه راهب بالفطرة معزول، اسمها صدمة لأنها بتيجي من أقرب الناس لينا.

مشكلة كتير من الأهل إنهم بيكونوا فاكرين إن الحياة كريمة لأولدهم لمجرد ما يتوفر فيها الفلوس واللبس، الفلوس واللبس من دواعي الحياة لكن مش هُمَ الحياة.

الحياة إن الواحد يلاقي اللي يحسسه بقيمة نفسه، وإن وجوده في حياة شخص واحد على الأقل مهم بالنسباله وفارق.

رغم إن كريم لسه في مرحلة الثانوية، واللي بيمر بيه موصلش لإنه يتقال عليه حُب، لأن ده سن مراهقة بحت، إلَّا إن أعراض المراهقة بتكون هي بمُجمل تفاصيلها حُب.

إنك تتعود على حد ده جزء من الحُب، إن الشخص يكون زعله عندك مش عادي ده حُب، إنك تتحمل حد وقت غضبه حُب، إن غيابهُ يقصر فيك حُب، الحُب مراحل مبتكملش وبيتقال عليها حُب غير لمَّا تتوجد كُل مراحله وتاخد حقها فيه، الحُب فعل وتأثير وشغف، آخر مراحله الكلام.

كريم مايعرفش إنها كل يوم تصحى على مشكلة في البيت، لأنها مابتحكيش وبتشيل جواها وتسكت، وده حال ناس كتير بنشوفهم يوميًا، بدءً من المترو حتى الشوارع والضواحي والبيوت، حتى في الكافيهات، يوميًا فيه ناس من الوِحدة بتموت.

في بعض الأحيان تجد الناس يتوهمون السعادة، يتمنوا ذلك

الشعوروإن كان ذلك مزعومًا ومزيفًا.

مروة سمعت مَرة باباها وهو مع مامتها في علاقتهم الحميمة، صوت مامتها بالنسبالها صوت حد بيتعذب وبيتضرب، لأن بقى عندها فِكريقيني إن ديمًا علاقتهم ببعض خِناق وضرب والحياة بينهم ما هي إلَّا، صراع وساحة للخناق، فكان سلاحها الوحيد هو البكاء، حتى أُغشيّ عليها، ومن هنا اتزرع جواها الرعب الحقيقي تجاه القرب من أي شخص.

انتهى اليوم الدراسي، وعاد كل منهم إلى منزله، ولكن لم ينتهي الأثر النفسي.

أكترcategory من الناس بتعاني في حياتها هي الناس اللي ممكن يومها يتقفل بكلمة أو موقف أو رد فعل مبيعرفوش ينسوه بسهولة ولا يكبروا دماغهم من اللي حصل؛ لأنهم عايشين على التفاصيل البسيطة دي.

المشكلة بقى إن الناس بتشوفهم معقدين، ومعتقدش فيه شعور ممكن يؤذي أكتر من إن حد يصفك بما ليس فيك، لكن لا بأس، حتمًا ستلتقي مع النسخة التي تُجيد التعامل معك وفهمك دون عناء، صبرًا.

– مالك يا كريم، في حاجة مزعلاك في المدرسة؟

– لا مفيش يا علياء (أخت كريم)

ومين فينا مفيهوش وجع ولمَّا اتسأل قال مفيش!

محدش بيحس بقيمة الوجع غير اللي اتوجع، ومش من حق أي

حد في الدنيا إنه يقررلك إذا كانت مشكلتك تستاهل إنك تزعل عليها ولا لأ غيرك، شعورك النفسي هو الحكم الوحيد في التقييم.

***

3 يناير 2019، الساعة 5:13 PM.

غالبًا تشهد الأماكن على التفاصيل والأسرار الخاصة التي لم يُعلن عنها بعد.

وصل الطبيب عيادته الموجودة بوسط البلد بشارع شمبليون، اعتاد أن يبدأ يومه بفنجان القهوة، متأمل وجه الناس الشاحبة في هذا الفنجان، متصورًا بأن بقايا فنجانه ما هو إلَّا عبارة عن تواريخ مفزعة للمرضى الذين يأتون إليه، تاركون الوِحدة وما ترتب عليها من سقم.

صوت الجرس اعتلى، وانفرج الباب، وصوت أقدام المريض على الأرض كسِلمٍ موسيقي.

حينها كان ينظر من شرفة مكتبه إلى العابرون في الشارع، استشعر قرب المريض من مكتبه، فقال:

– اتفضل اقعد، وبصوت هادي جدًا، إيه اللي مفرحك كده؟!

حينها علامات التعجُب كست وجه المريض من الدهشة، وشعر كأنه يُستخف به، لكن سرعان ما قال:

– لأ مالك بجد خد راحتك و انت بتحكي، أنا مبملش على فكرة.

– أ أ أنا أنا اسمي هشام، عندي ي 28 سنة، ارتبطت 4 مرات

وكلهم فشلوا.

– وطبعًا العيب فيهم.

مندهشًا مقشعر الجبين.

– انت عرفت ازاي؟

– اممم كمل.

لمَّا كلنا ملايكة يا هشام، فين الشياطين! كمل، كمل.

– يا دكتور، حاولت في الـ4 مرات إني أغيركل مُشكلة كان بيحصل بسببها مشاكل وقرف وزهقت، أنا لمَّا أخدت قرار أجيلك الصراحة كان بعد فترة طويلة من التفكير، أنا جيت عشان أعرف هو العيب في مين، و أنا ديمًا بصراحة مخبيش عليك عندي تخيل إن اللي هسمعه من أي دكتورنفسي يعني ما هو إلَّا كلام مترتب، لا بيقدم ولا بيأخر.

في ناس بتشوف نفسها نازلة من السما مبتغلطش وخاليه من العيوب وديمًا هُمَ صح، الكل في عنيهم متهم، الكل غلطان ومقصر، الناس دي اخسروها و انتوا مطمنين لإن الخسارة هنا مكسب.

– طيب و إيه اللي جابك؟

– مش عارف بس حسيت إن لازم أعمل اللي عليا.

– حلو شعور إن ضميرك بيأنبك، كويس إنه لسه حي.

حينها نظر إليه وترك الشُرفة بعد ما مَر سبع دقائق لينظر كلٌ منهم في تفاصيل الآخر.قائلًا:

– لو انت فاكر نفسك داخل عندي عشان تاخد فانوس سحري وتخرج من هنا كأن مفيش فشل في حياتك حصل تبقى غلطان، ولو فاكر إن الحيطة فيها فيشه هوصلها تصدر لك سعادة تبقى واهم زي ناس كتير رافضين يقولوا اننا غلط، لو بصيت من الشباك هتشوفهم!

رفع حاجبه وبدأ يفرق في أصابعه حتى ظهر العرق على جبينه.

– الوجع بيعلم في حياتنا زي ما الجرح بيسيب أثر حتى بعد ما يخف، بيفضل مكان الجرح يوجع وبيكون بمثابة نقطة ضعف فينا، فما بالك من وجع الفراق بيكون أضعاف، الوجع وقتها بيكون في القلب، بيهزك من جوه حقيقي، بيخليك تفقد مصدقيتك تجاه الناس وإحساسك المستمر بإن أي شعور تجاهك مُزيف.

أسوأ إحساس ممكن حد يعيشه، إن يلاقي نفسه بعد فترة كان مجرد وقت مش أكتر، وقتها قلبه بينشف من القسوة، وبيفقد ثقته في الناس كلها.

– مشكلتك إنك فاكر إن مفكش غير 4 عيوب ودول اللي حصل بسببهم انفصال وفشل، يعني مثلًا لو دخلت علاقة خامسة وفشلت كنت هتفتكر برضو إن مفيش غيرهم.

❁❁❁

المسؤولية (The responsibility)

– البنت عمومًا لمَّا بتدخل علاقة بتكون محتاجة إنها تتعوض بالشكل العادل عن أى فقد مَرتْ بيه في يوم من الأيام، بتدخل علاقة

عشان تحس إنها بنت وطبيعي إنها تحب وتتحب، مش العكس، هي لو كانت تعرف إن العلاقة هتكون مؤذية بالشكل ده، كانت استكفت بأذى الدنيا لأنه كفيل إنه يهد حيل أي حد.

وجودك في حياة أي حد مسؤولية، فما بالك لو حد بتحبه، حفاظك وخوفك عليه حتى مشاعره من ضمن مسؤولياتك.

الست بشكل عام لو اطمنت هتحب، عمرها ما هتحب بالكلام، وقتها بتكون عايزة تسلم حياتها بكل ما فيها للي معاها، والأهم من إنك تحبها، إنك تخليها تحب نفسها بسبب حُبك ليها، وقتها شلال فيضها هيبهرك، وهتحس انك مالِك الدنيا بحالها، مش أجمل ست وبس.

كل واحد فينا مر اية نفسه قبل الناس.

انت وصلت لمرحلة إنك حبيت حد لأنه موجود في حياتك وبس، بدون ما يبذل جُهد، حسيت إن وجوده هو الكفاية بالنسبالك.

– لأ طبعًا!

– انت فخور إنك محبتش و اتحبيت يا هشام، ولَّا زعلان إن اللي حبك حس نفسه عبء عليك فخرج من حياتك؟

عارف انتَ جيت هنا عشان عايز حد يمَشي حياته على هواك.

وكانت المَرة الأولى التي أمسك بها الطبيب ورقة وقلم مدونًا بخط سميك الاضطراب الباروني، قائلًا:

– ده الاسم العلمي لمشكلتك.

رفض الطبيب أن يقول مرض، بل قال مشكلة، وصْف الحالة

بالمشكلة أفضل من وصفها بالمرض، وهذا يؤكد مدى تأثير الكلمة.

تلك اللّفتة الإنسانية التي يسعى إليها الطبيب، كنوع من أنواع العلاج المبدئي المصحوب بالدعم النفسي، ولذلك كان حريصًا إنه يشعره ببساطة الأمر، دون تضخيم متحدثًا:

– الاضطراب أو الانفصام الباروني، وده نوع مش سهل؛ لأن بيكون تأثيره على خلايا المخ، بينتج عن كبت المشاعر والصدمات المستمرة، وده يخليك تفكر ألف مَرة قبل ما تخوض تجربة وتدي فيها كل طاقتك العاطفية.

مش منطقي تحب حد لمجرد إنه قالك أنا بحبك، لمجرد إنك لقيت رسالة فترد عليها، وبالتدريج تتعود وتقول حبيته، مش صح أي حد يحاول يقرب مننا فنرحب بيه، خلي بالك كويس، التجربة دي على حساب صحتك النفسية، و انت وحدك اللي بتدفع تمن التجربة دي، فخليك حريص.

عارف الاضطراب، كإنك حاطت لوح تلج على دماغك مصلب ومجمد كل الشر ايين الموجودة فيه، أحيانًا تلاقي نفسك مش عارف تفكر، مش عارف تاخد قرار، مش عارف انت صح ولا غلط.

الأعراض دي مش بالضرورة انك مصاب كده، لأ بس دي مؤشرات للعلاقة اللي انت فيها، راجع نفسك ومتقربش أكتر من كده عشان تفهم انت فين بالتحديد.

أحيانًا كمان بيكون عنده ضلالات غير متناهية لأنه بيفسر الكون والأحداث على ميوله الشخصي وبس، بيستنكر الو اقع لو

ضد رغباته، اللي هو يعني مش سهل يعترف بحاجة مش بيحبها، وده اللي بسببه بيحصل عدم تو افق مع أي شخص.

فتنتهي العلاقة قبل ما تبدأ، ولو بدأت مبتستمرش، مبتهونش عليك نفسك إنك ترهقها، ودي طبيعة في أي كائن حي، مش الإنسان بس.

مريض الاضطراب مش بيشوف التضاد ده، لكن بيفسر كل حاجة من وجهة نظره الشخصية، وبالنسباله اللي بيعمله هو الصح، فينتج عنه فقد مستمر للعلاقات بشكل عام، وفي النهاية هيكون وحده.

استمرارك في تفسير الأحداث و انك تفضل أُحادي الرأي ذو سطو على الآخرين شيء غير مقبول؛ لأنه ضد الطبيعة والفطرة بشكل عام.

مفيش إنسان هيتقبل إنه يعيش على حاضر ونعم وبس من غير ما يفهم ويناقش ويقتنع.

خطوة إنك تجيلي هنا دي في حد ذاتها نجاح، أنا بحييك عليها بأمانة، أنا عايزك تتعامل مع روحك ومشاعر الناس كأنها سي دي تخاف لحاجة تخدشها فتفقد قيمتها.

خرج هشام عن المألوف وكأنه أدرك إنه مريض.

– بس لو ده مرض يا دكتور، فيبقى مش بإيدي، ده بإيد ربنا.

– ونعم بالله يا هشام.

اعتراف هشام بالمرض هنا سهّل كتير أوي عليه، مش سهل

نفسيًا إنك تصف شخص بالمرض، حتى لو هو متأكد من ده بيكون محتاج اللي يكدبه، العامل النفسي بيتحكم في الضغط وضربات القلب، حتى بيوصل تحكمه في انفتاح و انقباض بعض عضلات الجسم وأحيانًا بتؤدي للموت، لذلك طريقة العرض أهم من العرض نفسه، طريقة الكلام وتعبيرات وشك أهم من الكلام ذاته.

خُدها قاعدة في حياتك، لو عايز تقنع حد وتكسبه، اقنعه بكلامه هو مش كلامك انت، جرب القاعدة دي هترتاح كتير أوي.

– هشوفك مَرة تانية يا هشام أكيد.

سلام غريب ما بين المريض والطبيب غير معتاد، تصافحوا بشدة مع ابتسامة قوية ضاربين الطقوس المعتادة، محاولًا زرع الصداقة بينه وبين مريضه.

عادةً لا يعترف المريض بمرضه، لذا يرفض المريض العلاج.

تنويه.

"من فضلك اترك الكتاب لمدة خمسة عشر دقيقة من الآن، ولا تحاول كسر القواعد فهي تهدف إلى أمنك وإعادة تركيزك، قم بإعداد مشروب مفضل ثم غيّر من جلستك، ثم عُد مَرة أخرى إلى ما وقفت عليه».

أبلغتك بأن تترك الكتاب!

وجاءت الرياح بما لا تشتهي السُفن.

كالمعتاد تستيقظ مروة ولكن تلك المَرة كانت دون غيرها من

الضجيج والخوف، خرجتْ من غرفتها على إثر صوت تحطيم زجاج، إذا بها تجد أمها طريحة الأرض ويكسو الدم ملامح وجهها، وترى الأب مُقبل عليها، بنظرة دهشة تقع العيون على بعضها، لتجد الأب متهتهًا وقائلًا في عُجالة:

– متقلقيش إزاز النيش وقع عليها هوديها المستشفى وهتبقى تمام.

أحيانًا لا نجد من الكلام ما يصف الألم، فنلتزم الصمت ويكون هو التعبير الأدق عن الضجيج الذي يملؤنا من الداخل، فيظن من حولنا أننا على ما يُرام.

الكثير لا يعرف بأن الصمت متبوع بصراخ ووجع داخلي كاد يشبه صوت المترو عند خروجه من النفق، أو حياد القطار عن القضبان، وما يسببا من ألم تجاه السمع.

حملها ونزل مسرعًا إلى المستشفى ثم عاد وكل شيء على ما يُرام من وجهة نظره، غالبًا يمتلئ المجتمع بمن هم أُحادي الرأي والتصور.

كتير من الناس فاكر إن بعد ما يكسر حاجة هيكون قادر إنه يرجعها زي ما كانت، وده بيكون إنسان واهم، فكره لم يتخطى الحدود الأولية من الوعي والتطور تجاه مشاعر الآخرين، الحاجة اللي بتتكسر مبترجعش ولا عمرها هترجع زي ما كانت.

الثقة لمَّا بتتهز مهما حاولنا مبترجعش، الوعد لمَّا بيتكسر بيكسر معاه أي علاقة، الاتفاق لمَّا بيتغير بيغير معاه كل الثوابت والوعود، العلاقة لمَّا بيحصل فيها خيانة بتتمحي فيها كل حاجة حلوة وبتسقط

في لمح البصر.

ولكن ما تبقى من أثر المنظر كان قد حُفر في قلب مروة التي لا تعرف ما الذنب الذي اقترفته لكي تعيش تلك الحياة.

بصوت داخلي لكنه يملأ المكان بأثره تقول:

هل الحياة ظالمة، أم نستحق ما نحن فيه؟!

غالبًا الطيبون، تبتليهم الدُنيا، وتختبر صبرهم دومًا، أم أنَّ للقدر خبايا لا نعرفها حتى الآن؟

الحقيقة إن الحياة بتتطلب منا استخدام العقل قبل القلب.

❁❁❁

العقل قبل العاطفة (Mind before emotion)

أصعب أنواع العلاقات اللي ممكن تدخلها هو إنك تلاقي البنت بيحكمها المنطق والعقل قبل العاطفة، وخصوصًا لو البنت دي جميلة، الموضوع بيبقى شبه مستحيل.

الناس دي مش بتوع كلام معسول، ولا دي سكتهم خالص، دول طموحهم في الحياة أكبر من كده، لأن ده بالنسبالهم كلام فارغ، محتاجين شخص مخطط لحياته، شخص ناجح ومتزن وتقيل في نفسه كده، وقبل أي حاجة، يدخل البيت من بابه، غير كده لو اتشقلبت قدامها عمرك ما هتلفت انتباها ولا هتشوفك، لإن عندها Controller عالي جدًا على مشاعرها وحياتها بشكل عام.

في عام 1945م أمر الجيش الياباني بقتل الحيوانات الموجودة بحديقة «أوينو» فتم وضع سم في طعامهم فماتوا جميعًا إلَّا ثلاث فيلة لم تأكل لأنها علمت بذكائها أن هناك سم، ماذا كان حال الفيلة لو اتبعت العاطفة مثل غيرها؟ وصلت؟!

أحيانًا بل غالبًا يموت أجمل ما فينا بسبب العاطفة المُفرطة.

وهنا بدأت مروة تخرج عن المعتاد والمألوف، وأصبحت ترى سعادتها في غرفتها وعُزلتها، عن الناس، ودخلت في مود الحُزن الشديد لفترات طويلة، ويكون ده أول سلمة من سلالم المرض النفسي مع اختلاف نوعه وتصنيفه.

جعلها لا تتأثر بالطبيعة المحيطة، فقدت الرغبة في كل شيء، وبدأ يُسيطر عليها شعورًا داخليًا بأنها هي المتسبب لكل ما يحدث في ذلك المنزل، مما جعلها تتخذ قرارًا بقتل أمها!

لو كنا أسرع خطوتين كانت حاجات كتير اتغيرت للأفضل.

على صوت صراخ الأم، خرج الأب من الحمام مفزوعًا فوجد الزوجة بين يدي ابنته تحاول خنقها، فانهال عليها ضربًا حتى سال الدم من وجهها.

ما حدث كان العقل رافضًا أن يستقبله، والبصر يستنكره، والفؤاد يتصوره، وكان المدهش بأنها ظلت صامتة وذهبت إلى غرفتها وكأن شيئًا لم يكن!

علامات الدهشة تكسو وجه الأب، مئات الأفكار وعلامات الاستفهام تُطرح في عقله، لكنه بعيد كُل البعد تمامًا عن ما أصاب

ابنته، أو أنه المتسبب في ذلك.

الجسد البشري مُذهل، إن حرمته من بعض حواسه، تقوم الحواس الأخرى على الفوربملء الفراغ (دان براون).

27 فبراير 2019م ظُهرًا.

تم استدعاء الدكتور سامي، إلى مستشفى الجلاء على وجه السرعة إثر حادث قطار أليم، وقع بمحطة رمسيس بالعاصمة المصرية القاهرة.

نتج عنه عشرات الضحايا، بعدما خرج المصابون من غرف الطوارئ التي امتلأت أرضُها بقطع صغيرة من أجساد الناجين، ولون الدم هو السائد في المكان، قِطع الملابس المفحمة تجعل العين تستغيث، ولك أن تتصور، ما يدب به الفؤاد عند النظر على أطرحة الفراش، والأجساد غير مكتملة، فمنها ما بُتر، ومنها ما أكلته النار.

تم نقلهم إلى غرفٍ مجمعة، وبدأ دور الطبيب في الدعم النفسي المُكلَّف به رسميًا من وزارة الصحة قائلًا:

– لكل شخص فقد جزء من وطنه (أي جسده).

وبعيون تكاد الدموع أن تغطيها لولا تمالك نفسه، ينظر إلى سقف الغرفة، يتأمل لمبات الإضاءة وكأنها نجوم عالقة في السماء، ينظر إلى المرضى، يشد على أسنانه، يضع يده على حافة سرير أمامه، وبصوتٍ عبقري:

ما حدث حدث بقدرٍ لأن الله قال(إن كل شيء خلقناه بقدر)، مهما كان المتسبب أو السبب يكن التعويض العادل حينها من الله

ليس العِباد.

إيمانكم أصدق من إيمان ناس كتير بتدّعي التدين السطحي، هو الإيمان الحقيقي اللي كان دليله واضح في الصبر والصمود على الابتلاء، هتفضل سيرتكم على الأقل لـ100 سنة قُدام، وبكل ما أوتيتم من وجع وفقد لا يحق لكم أن تميلوا.

فتبسم الجميع حينها، لكن الوجع كان صوته أعلى، في ناس كتير عقلها منوّر، وقلوبهم عتمة وسواد حالك.

استمر الطبيب فيما يقرب من ساعة ونصف، ثم عاد إلى منزله.

في اليوم التالي، ظلت غرفة مروة مغلقة، بدأ في طرق الباب الأب لكن لم يتلقى ردًا، حاول مجددًا فظن السوء، مما اضطره إلى كسر باب الغرفة، إذ به يدخل يجد ابنته نائمة دون حركة أو شعور بالقلق، حاول إفاقتها لم تستجب، دخلت الأم وهي تحاول أن تتعافى من صدمتها، إذ بها تجد شريط النيترازيبام الذي كانت تستخدمه هي عند الحاجة بإشراف الطبيب بجوارها!

فظلت تصرخ دون وعي أو شعور، على الفور تم نقلها إلى المستشفى، ووُضِعت بالعناية المركزة لسوء حالتها الصحية.

بعد ثلاثة أيام من دخولها المستشفى خرجت متعافية، وهي لا تعرف لماذا كانت هُنا، وكان المدهش بأنها لا ترغب في الحوار، وتتعامل بكامل طبيعتها، مما جعل الأب والأم يتبادلان فكرة عرضها على طبيب المخ والأعصاب، وكانت الكارثة هُنا.

مفيش شيء كارثي أشد خطورة من إن شخص غير متخصص

يشخص مرض، وده اللي بيقع فيه كتير من الناس، نتيجة كسوفهم من نطق اسم المرض النفسي، وكأنه عاريلحق بهم طيل العمر.

لذلك يكون الشيء البعيد عن فكرهم، ذهبوا إلى طبيب مشهور، فوقعوا في سوق تجارة البشر من الكشوف والأدوية والجلسات والفحوصات.

هل الطبيب لا يستطيع أن يقول لا أعرف المرض لأنه ليس تخصصي؟ أم من السهل أن يستنزف إنسان دون ضمير حي، فيجعله ضحية لتجاربه الفاشلة من أجل المال؟!

عندما يغيب الضمير تحل القسوة بدلًا من الرحمة، ويصبح الضعيف فريسة مُستباحة للجميع.

بدأت تخضع لجلسات الكهربة، لا أحد يستطيع وصف الألم حينها، عندما تُلامس الكهرباء الأطراف مباشرةً.

بعد عدة جلسات، بدأت دو افعها العدو انية تظهر؛ لأن السبب المباشر في الأذى كان من أقرب الناس إليها حسب ما تكون الطبيعة.

أكثر من محاولة انتحار باءت بالفشل في تنفيذها، إن كان معها وإن كان مع محبيها، فقرر الأهل بجهلهم الحُكم عليها بالإعدام!

– هل سوف تُقتل؟!

– في الحقيقة اه، لكن بطريقة تخلوا منها عوامل الإنسانية، تُسلب منها الحُرية، إلَّا أنَّ الإعدام في حد ذاته ضد الإنسانية مهما كان الجُرم المُرتكب.

فتم تشخيصها من قِبل الأب بأنها مُصابة بالجنون، والكارثة من شخص عادي ليس بطبيب، عندما تحكم القوة، ينصهر العلم والعلماء.

الكثير من الناس يخشون الخوض في سيرة المرض النفسي، والتدقيق فيه وفي أعراضه، لذا لا يعرفون عنه شيء.(خيبة بعيد عنك!).

❁❁❁

(الاكتئاب السوداوي)

ده نوع صعب أوي من الأمراض النفسية، لأن بيأثر على حياة الشخص بشكل عام، من اسمه كده ممكن تستنتجه، ديمًا الشخص بيشوف كل حاجة سودة في حياته، يكون صعب انك تقنعه بشيء إيجابي، وده نتيجة اليأس اللي اتمكن منه، والمشاكل اللي ديمًا يلاقي نفسه فيها بذنب أو من غير ذنب، وللأسف محدش حاسس بيه.

وقتها بيشوف إنه السبب في كل فشل حصل أو ضرر بيلحق بيه أو بالناس اللي بيحبهم، فذلك رغبة الانتحار عنده بتكون شديدة أوي.

فكرة إنه يمَوّت أعز و أقرب الناس ليه فكرة مستمرة؛ لأنه بيشوف إن الناس دي متستهلش إنها تتهدل وتتوجع بالشكل ده على حد تصوره، أو إنه السبب في ده، لمَّا بيحاول يمَوّت حد بيكون بدافع الحُب والحماية ليه متخيل!، مش الجنون زي ما الناس العادية بتصنف.

عشان تبعد عن الكوارث دي، لازم تكون حريص كل الحِرص

انك متفضلش قافل على نفسك لمجرد وقوعك في مشكلة، أو حلم راح منك، متخليش عقلك يصورلك إن العُزلة راحة مستمرة، متفضلش بين أربع حيطان وتقول أنا كده مرتاح، ربنا ماخلقكش حُرعشان انت تقيد نفسك كده.

عيد حساباتك من اللحظة دي، وفلتر أمورك كويس، ومتديش حاجة أكبر من حجمها لأنك بتعمل load على نفسك من غير ما تحس، وبالتدريج هتلاقي نفسك رايح السكة اللي أخرها توهة ودماروهلاك، فلطفًا كفاية وِحدة وبلاش تكون وحدك.

وده اللي مروة مصابة بيه، مشكلة المرض ده بإن أفعاله يراها العامة أفعال جنونية، فلذا وُجِد الأطباء لنستفتيهم بما نجهله علمًا.

الطبيب وحده هو المختص في التشخيص والتوضيح كشعرة فاصلة ما بين الثقة والغرور، لا يُدركها إلَّا صاحب عِلم ومبدأ.

مريض الاكتئاب السوداوي، بيعبر عن حُبه للموت، أسوأ شعور ممكن نقدمه للي بنحبهم هو إننا من الأمان نحرمهم، ونعيشهم طول الوقت في قلق وخوف مستمر إنهم ممكن يخسرونا.

العلاقة بشكل عام لو مش هيكون فيها أمان، صدقني هتبقى عبارة عن ابتلاء وبلاء، الشخص اللي يقدر يعيشك في أمان هو الوحيد اللي حبك بجد، حتى لو مش عارف يعبر عن حبه بالكلام.

ربما وقعت في أُناس يمتلكون الكثير من العاطفة واللين وكل مخطوطات الحُب، لكنهم أيضًا يمتلكون من الحياء والكسوف والحساسية المفرطة ما يجعلهم صامتون، حتى يتيقنوا من

شعورهم.

الحُكم على مروة من الحُرية للقيود، جعلها تفقد نِسبًا من اتزان فِكرها.

من طبع الإنسان أنه حُر، والحُرية لا تتقنن في مفاهيم مُعينة زي ما انت فاهم، لأفيه حُريعني من حقه يغضب ويثوروينزعج ويغِيرويحب ويقرب ويبعد، من حقه إنه يعبر عن ذاته، حُر ميحسش إنه مملوك وإن من حقه يتحرك في المساحة الكافية اللي تعبر عن استقلاله، مش مُجبر على إنه يتقبل أفكار ضد أفكاره في الحياة، محدش مجبر يتقبل حاجة غصب عنه، واللي يفكر في ده اخسره في الحال.

وصل الطبيب عيادتهُ، كالعادة بدأ يعيد النظرويتأمل التفاصيل فيما تبقى من فنجانه، إذ بالباب يُطرَق، قاطع ذلك الشرود من الذهن، فوجد هشام الذي ظنَّ هو أنه لن يعود مرةً أُخرى.

وضع يداه على المكتب وهو ينظر إلى مُسطح الكرة الأرضية الموجودة على مكتبه، ويضم شفتاه لحظات ثم ينفجر ضاحكًا قائلًا:

– عاش يا بطل.

هشام بتهتهة:

– الصراحة أنا حاولت مجيش هِنا تاني، لكن حسيت إن كلامك بيطاردني في كل تصرف بعمله وبشوفه، حسيت انك أكترحد فهمني، وده هيخليني أفتحلك قلبي و اتكلم معاك بجد بدون قلق، عكس أول مَرة جيت هِنا فيها.

محدش بيعرف قيمة حد غيرلمَّا يجرب غيره.

بس معلش هو فعلًا إحنا لو خايفين من حاجة بنشوفها في كل حاجة؟ ولَّا أنا اللي بحس زيادة عن اللازم!، أنا جيت و أنا معترف إني غلط، معترف إني متهور في سلوكي و اندفاعي في رد فعلي، أنا في الأول والأخر إنسان.

الدكتور قائلًا:

– انت نفسك في إيه؟

– أنا عايز ارجع زي ما كنت، زي الأول وبس.

نظر الطبيب إليه وهو في حالة لا يُرثي لها من التأمل.

– أنا مش هقولك أنا بغرق وعايزك تنجيني لأ، أنا بس عايز أحس ولو مَرة إني مش مقصر مع حد، إن مش آذي حد، صور الناس اللي كنت سبب في آذاهم النفسي بقت قريبة مني وبشوفها في كل حاجة بتحصلي، أنا عايز أقابل أي حد قصرت معاه واعتذر له.

– مالك قالبها دراما أوي كده، شوف يا إتش، انت دلوقتي في أعلى مراحل الإيمان وهو السلام النفسي المتبوع بحُب وندم على التقصير، عرفت قيمة الروح والمشاعر، قيمة الناس اللي دخلت حياتك، عرفت يعني إيه حد كان صابر عليك عشان بيحبك، كان عنده أمل إنك تتغير وقتها علشانه.

– أنا فعلًا، أول مَرة أحس إني راضي عن نفسي كده.

– شوف شعور الأمان في أي علاقة أهم من أي شعور تاني، أهم من الحُب نفسه، و إنك تحس إنك مطمن ومبتبذلش جهد للتبرير والتوضيح المستمر، أهم من الحُب المعسول في كلام طول الوقت

ومن جواك خايف إنك تتحمل المسؤولية، من أعظم دلائل حبك.

الحُب مش كلام مترتب حلو وأماكن فيها بنتصور، الحُب مسؤولية، إنك تتحمل مسؤولية شخص سلمك قلبه وعقله وحياته بقت مرتبطة بيك وبوجودك، وقتها تبقى حبيت وعليك مسؤولية.

إن زعله عندك ميكونش عادي ومُباح، إنهُ يبقى أقرب حد ليك نتيجة أفعالك، إنه يجيلك وقت زعله وخوفه من الحياة، إنك تكون قد كلامك وعهدك ووعدك معاه، دي المسؤولية اللي بيها ينفع يتقال إننا حبينا بجد.

لا تُفكر بأن توجه الحُب في مساره، فالحُب إن وجدك جديرًا به هو الذي يوجه مسارك (جبران خليل جبران).

❁❁❁

الانسحاب (pulling out)

لو مش هتقدر تشيل المسؤولية دي من البداية انسحب، لكن بلاش تورط حد معاك باسم الحُب، بلاش تدخل تلغبط حياة حد، لو هتبعد بلاش تقرب لأن قربك واهتمامك وعد، فلو غير مستعد إنك توفي الوعد ده بعمرك بلاش من البداية تقرب.

في ناس بتتعلق بسرعة، وده مش بأيدهم، فبلاش نحسسهم بضعفهم في كل مَرة، بيتسابوا فيها.

– عرفت بقى يا هشام إن لربنا حكمة في كل حاجة بتحصلنا.

– اممم... ونعم بالله.

– عايزك تبدأ تنام بانتظام، تاكل بانتظام، حتى دخولك الحمام خليه يوميًا بانتظام!

– هههههه، مش للدرجة دي.

– لأ والله بكلمك بجد من غير كسوف، جهازك الهضمي ليه تأثير أكتر من 40% من حالتك المزاجية، اسأل عن الناس اللي كانت بتسأل و انت مكنتش مهتم.

مقاطعًا الحديث:

– أنا فعلًا قررت أعمل ده.

– قرب منهم وشوفهم، لمَّا تقابلهم احضنهم وطبطب عليهم.

بقولك يا إتش، تخيل حياتك في لوحة، ومعاك 24قلم، تخيل نفسك فنان والعالَم بيشوف فنك، إبدع بقى يا عم، وخلي روحك تظهر على تصرفاتك ولبسك وشكلك وكلامك، اتحرر من كل حاجة بتوجعك و اتخلى عنها.

– أنا محتاج نص شجاعتك بس، عشان أقدر أوصل للتصالح ده هههههه.

– إبقى طمني عليك يا هاشم.

مال برأسه مبتسمًا، ثم خرج في هدوء و اتزان، وبصوت داخلي يقول: «سُكر، حلوة الدنيا، سُكر».

***

– سلمى، إحنا مش هينفع نكمل مع بعض!

– بتهزريا حاتم صح؟

– وهي المشاعر فيها هزار!

– تصدق إن أول مَرة أتمنى يكون كلامك هزار.

– أنا من فترة و أنا حاسس إني مش مبسوط، وحاسس إن العلاقة دي سبب عصبيتي وتعبي، وبحاول أكدب نفسي، مش مرتاح، مش دي العلاقة اللي كنت عايز أعيشها أو بتمناها، كنت فاكرها هتكون غير كده خالص.

أنا عارف إنك بنت جدعه، وتستاهلي أحلى مني مليون مَرة، وا...

– لأ، لحظة أنا هكملك الاسطوانة، أنا عارفة اللي انت هتقوله كويس، عارفة إني أول بنت هتقول إنك حبيتها (هههههه).

وإن مفيش في أخلاقي وطيبة قلبي، وطريقة تفكيري مختلفة ومُبهرة، و إني غير كل البنات اللي قابلتها في حياتك، وغيرهم في نظرك، أقولك أنا عارفة إني مليش زي ولا شبيه عندك!

أكمل كمان وارفع عنك الإحراج، دول الكلمتين اللي لمَّا كنت هتقولهم كنت هتحس انك كويس يعني ف نظري وضميرك مرتاح، و اني هقولك و انت كمان تستاهل حد كويس زيك!

هو انت لسه هتضحك عليا كمان في الفراق؟ إنت إيه، سهل عندك وجع القلب؟ وان شخص ترفعه باهتمامك لفوق ويرتب حياته عليك وفجأة من تحت رجليه تشد الكرسي، فيقع متكسر على جدور

رقبته!

ببساطة كده مش هقدر أكمل، طب واللي بينا؟!

– أنا موعدتكيش بحاجة.

حينها تبتسم ثواني، ثم تنفجر في البكاء قائلةً:

– هو وجودك في حياتي ده مش وعد؟ ولّا هو انت لازم يكون الوعد عندك ورق مكتوب وعليه شهود!

هي المشاعر والكلام والسؤال مش وعد بالوجود؟ هي الغيرة مش وعد ودليل على الحُب؟ هو العتاب مش حُب؟ هو انك تكون موجود في حياتي وقريب مني مش عشم؟!

ملعون اللي يصدق كلمة من غير ما تكون بفعل، إنت خلتني رتبت كل تفاصيل حياتي عليك، عودتني إنك موجود، و اني أحكيلك اللي بيني وبين نفسي، فضلت تقرب بالتدريج لحد ما حسيتك أماني ودنيتي، كنت بتديني طبطبة واهتمام من غير ما اطلب، أنا مكنتش عايزة أحب ولا ادخل في الدايرة دي ووجع القلب، بس انت خلتني احبك باهتمامك ليا.

تقدر تقولي كل ده اسمه إيه؟ أقولك أنا!

اسمه جحود وقسوة و أنانية وحب ذات، اسمه بتفكر في أهواءك الشخصية على حساب غيرك وتدمير مشاعر الناس، اسمه بخل وتدليس، حتى هتلاقيك في علاقتك بربنا بخيل، بأهلك بصُحابك، البخل طبع ما بيتجزأش، خلاص كده ارتحت؟

حسيت انك لازم ترضي ضميرك بكلمتين قبل ما تمشي، وتروح تخرب حياة حد تاني!

بذمتك إنتَ مش مكسوف و انتَ عمال تتحرك في قلوب الناس زي قطع الشطرنج، كل همك الانتصاروبس، إنت مش طبيعي، لأ.

عمومًا أنا مش هدعي عليك، أنا هدعي ربنا إنك تقابل اللي شبهك بس.

ثم حملت حقيبتها مُسدلة عيناها، لا ترى في الكون سوى الظلام الحالك، وخرجتْ مسرعة وهي لا ترى معالم الطريق من غزارة دموعها.

وظل هو جالسًا وكأن شيئًا لم يكن، وبدأ يُعيد النظر في هاتفه، بكل لا مبالاة، هو لا يُدرك ما حدث لأنه تحت تأثير مخدر حالته النفسية.

***

غياب مروة عن المدرسة لفترة زمنية جعل كريم يزداد قلقًا، وأصبح هاتفها مغلق طيل الوقت، في ذلك التوقيت انتابه صراع فكري بأنه شخص ليس مرغوب فيه من تلك، وهذا ما جعل المهمة أصعب حين قرر السؤال عنها.

يستيقظ يوميًا متخذ قرارًا بزيارتها، لكنه يتراجع دومًا، ولكن.عندما يفوق الحنين العقل، حينذاك نكسر كل القواعد والاستثناءات، فعَزم على زيارتها في منزلها.

مريض الاكتئاب السوداوي، بيتعامل مع الناس اللي ملهاش

تأثيرفي حياته، أو بمعنى أصح اللي مش بيحمل ليهم حُب الشغف كأنه شخص عادي جدًا، يعني منقدرش نلاحظ أي حاجة عليه من خلال مقابلة أو اتنين.

وصل كريم المنزل وفي مقدمة الاستقبال الأب.

بعد التحية والسلام التي لم تستغرق سوى دقائق، قائلًا:

– أنا كريم زميل مروة يا عمو، أنا جيت أطمن عليها مبقتش بتيجي المدرسة من فترة، خيرفي حاجة؟

– لأ يا حبيبي اتفضل حالًا هنادي ليها، تكون شربت الشاي.

ذهب الأب إلى غرفتها، و أبلغها بأنَّ صديقها في الخارج ويود أن يطمئن عليها، وحذرها بشدة أن لا تتطرق فيما مضى، وإلَّا سوف يحرمها من أن ترى أحد، أحد صفات الغيب تلك!!

بالفعل خرجت، ولكن سرعان ما لاحظ كريم تغير واضح على ملامحها قائلاً:

– عاملة إيه، ومال عنيكي حمرا انتِ منمتيش كويس ولا إيه يا بنتي؟

هزت راسها وضمت شفتيها، مع ابتسامة خفيفة مزيفة ثم قالت:

– أنا كويسة انت طمني عليك عامل إيه وأخبار الدراسة معاك؟

– أهو ماشية والله بس بيس يعني كله تحت السيطرة.

– أنا متشكرة جدًا على سؤالك يا كريم.

في تلك اللحظة شعر كريم شعور آخر، شعور المُحب بالقبول، فتتضاعف الرغبة في التمسك، وعدم التخلي والاستسلام.

– إيه مبتجيش المدرسة يعني.

مازحًا: على فكرة محدش بيقعد مكانك.

– لأ عادي ماليش مزاج على حبة مشاكل خفيفة هبقى احكيلك.

الأب والأم خلف السِتارة ير اقبان بشدة الحديث كيف يُدار بينهما، حتى غمرهم شعور الاطمِئنان وبدأوا هم في حديثهم مع بعضهم البعض بصوت خافض.

ظنت مروة بأن الأب خرج، والأم مُنهمكة في أعمالها المنزلية. وبدأ صديقها يُعيد الأيام التي مضت.

غالبًا تكن مشاعرنا رهن الذكريات، فبطرحها نُجبر بكامل الرضا على الثرثرة.

في لحظة سالت دموعها، وقالت بصوت مبحوح بالبكاء:

– أنا شبه بموت، أنا مبخرجش من أوضتي غير ع الحمام وبس.

فرد مفزوعًا بصوتٍ عالي:

– ليه كده إيه اللي حصل؟!

– أبدًا يا سيدي، بيقولوا عليا إني اتجننت.

– هههههه بتهزري صح؟

صدى صوت الكلمة رن على مَسمع الأب، فتدخل بسرعة البرق

قائلًا:

– ماما بتنادي عليكي.

شعر كريم بالخجل، واستشعر بأن الأمور على غير ما يُرام، بدأ يحتوي الموقف مُدعيًا عدم انزعاجه، ثم استأذن في الخروج.

***

اللحظة اللي قرر فيها حاتم إنه ينهي علاقته بسلمى، كانت تشبه نفس اللحظة اللي اتوفى فيها ابن الجيران من كام يوم، اللي هو يعني فجأة في لمح البصر كان القدر قرر إن الحدوتة والرحلة تخلص وتنتهي للأبد، بدون مؤشرات تدل على الفراق، وكان واجب علينا تقبل الوضع.

اللي عند حاتم وعند ناس كتير حاجة اسمها:

❁❁❁

الاضطراب الموسمي العاطفي

(Seasonal affective disorder)

بييجي عليك وقت بتحس إن في موجة كآبة في الجو، بتحس بملل في الأيام وتبلد في المشاعر، بخنقة في الجو، ضربات قلبك بتوجعك، تلاقي نفسك عصبي وملكش خُلق للحوار، بتبقى لا قادر تشرح ولا تبرر، اللي عايز ياخد فكرة عنك يتفضل، اللي عايز يدخل حياتك ترحب بيه، واللي عايز يسيب ويمشي مبتمسكش فيه.

المود والحالة دي بتزيد أوي مع بداية الشتا والغيوم اللي بتكون في الجو، بنتأثر بتغيير الفصول دي، وندبل من جوانا زي ما ورق الشجر بينشف ويسقط، الناس دي بشكل عام بتكون محتاجة يتصبر عليها مش تتساب، عشان تزهر من جديد وروحها تفوح بجد كالورد، مش هيصبر عليهم غير اللي حبوهم وبس.

يعني كام مَرة صاحبك أو حبيبك زعل منك وقالك سيبني وامشي، وهو كان قاصد إنك تمسك فيه وتقول لأ، هي النقطة دي!

كل واحد فينا محتاج لحد يتحمله وقت ما يكون عصبي، محتاج لحد يسمعه وقت ما يحس بقلة حيلته، محتاج إللي يسأل عنه قبل ما يحس بالوِحدة، محتاج لواحد يدعمه نفسيًا، إحنا محتاجين الونس بشكل عام.

محتاج يحس من إللي بيسمعه وبيدعمه وبيسنده إنه بيعمل ده وهو مبسوط مش مغصوب على أمره، أصلها تفرق، في ناس ممكن تموت من عِزة النفس ولا إنها تطلب من حد حاجة، متحسسوش حد إنه بيتسول المشاعر منكم؛ لأن وقتها هيختار الوِحدة والبُعد حتى لو فهم موته.

إحساس الأمان في أي علاقة هو اللي بيحدد قيمة الواحد ومكانته عند الطرف التاني.

إحساس سلمى بوجع القلب وقلة الحيلة، وشعورها بإنها مش كفاية في حياة حاتم، خلاها تبعد عن العلاقات بشكل عام، في ناس كده لمَّا بتتساب بتفقد ثقتهم في نفسهم، وبيتزرع جواهم هوس الفشل في إن أي علاقة هيدخلوها هتفشل في يوم من الأيام، الناس

دي ذنبهم في رقبة اللي وصلهم للمرحلة دي.

في شعور أصعب من إن كلام يترجمه، أصعب من أي تصنيف ممكن يقننه، شعور الشخص وإحساسه بالغُربة رغم وجود الناس حواليه، ده شعورك أنك عاطي لواحد حُقنة مُخدر في الوريد، في لحظة بتختفي كل دو افع وآليات الحياة بالنسباله.

الحالة اللي أكتر من 90% من أصحاب العلاقات بيدخلوها بعد فشل علاقة ما، تصنيفها أو اسمها» اضطراب تبدد الشخصية».

الناس دي بيتصدر ليهم شعور غريب، يعني مثلًا لو حد بيتفرج منهم على فيلم ديمًا يشوف نفسه في شخصية معينة، ويبدأ يعيش مود الأحداث وكأنها حياته تمامًا.

ديمًا تيجي عليه لحظات بيكون فاكر نفسه إنه بيحلم، و إنه فعلًا منعزل عن الو اقع، ده غير إنه بيشوف حاجات وهمية، وده كان شعور سلمى في الوقت اللي انتهت فيه العلاقة بشكل خاطئ ومُفاجئ.

الناس مش فاهمة إنك لسه خارج من علاقة قلبك فيها بايش ومفتت، من أي خبطة هيتحول لرماد، ميعرفوش إنك خارج من تجربة مؤلمة ومو اقف حرجة، و إنك فعلًا محتاج وقت تكون فيه مع نفسك، تعيد حساباتك وتقدر توجد الثقة اللي راحت مَرة تانية عشان تكمّل حياتك من جديد مع شخص تاني، ده لو قدر يقنعك بنفسه.

بس طبعًا الناس مستعجلة وعايزة تاخدك من الباب للنار على طول، وإلَّا تبقى مكتئب في عيونهم وحزين، فاكرين قلبك فندق،

مجتمع غريب الأطياف والطباع، أسهل حاجة فيه إنهم يصنفوا الناس على رغباتهم!

في تصّور ديمًا بيلاحق أصحاب العلاقات المنهارة، و أنا بسميها انهيار كأنه مبنى عظيم، وف لحظة بينزل كوم تراب، لا السُكان ولا المالك ولا المارة في الشارع بيكون عندهم لمجرد تصور إن المبنى ده ممكن يقع، نقدر نقول يعني العشم واخدهم ع الآخر، وطبعًا انتوا عارفين آخرة العشم بيكون إيه!

بس عيب متقولش كده.

آه هو ده.

عارف انت زي الزلزال بالضبط، لمَّا بيحصل لو المبنى موقعش، بيصدّع، متخيل يعني إيه طوب وصخر يصدّع، يعني يفقد ثباته وقوته ويبقى هش خالي القوام، وده حال الواحد مننا لمَّا فجأة وبدون مقدمات، يلاقي الشخص اللي مرتبط بيه بيقوله أنا آسف مش هقدر أكمل.

أو يعرف إنه بيتخان، أو يعرف إن اللي بيكدب عليه هو شريك حياته الوحيد، أو يكتشف إنه نزوة ومجرد وقت، وكل الكلام اللي كان بيتقال كان مجرد سراب ووهم وكدب، وقتها بيصاب باضطراب تبدد الشخصية.

وبيشوف الحياة سودة، وده اللي بينتج عنه الصدمة لشخصٍ ما اتعرض ليها في حياته، قد إيه لمَّا تفقد الو اقع يعني كأنك طول الوقت اللي فات كنت عايش في وهم وحلم.

الفكرة في حد ذاتها مخيفة ومرعبة، تبدد الشخصية بيخلف تفكير بطريقة مزعجة لنفسك قبل الناس، يعني إيه تبدأ تر اقب جسمك من الداخل، متخيل!، يعني تسرح وتشوف ازاي القلب بيشتغل وازاي بتتنفس وازاي الدم بيجري جواك، وازاي الكون اتخلق، وتبدأ تدخل في حتة تانية خالص.

تبص للسما وتقول ازاي وكيف الدُنيا اتوجدت، التصوروالتفكير ده إحنا أضعف من إننا نعيش بيه، لأنه بيوَصل إحساس الرهبة للشخص، ولو التعمق فيه استمر هتكون مُصاب بمتلازمة الضغط والصُداع، فندخل في دايرة المرض العضوي والهزل الفكري.

فحاول إنك تفكر في حدود المسموح ليك، وتعايش مع الموقف الحالي، أيًا كان الوضع اللي انت فيه، مش هيكون أسوأ من صاحب حلم اتولد في سوريا.

محدش فينا مطالَب إنه يكون متاح طول الوقت، ولا ينفع إننا نسلم مفاتيح حياتنا ورغباتنا لناس لمجرد إنهم انهروا بينا و انهرنا بهم من نظرة.

محبش أبدًا إننا نوصل لمرحلة إننا نفقد فيها العاطفة، العاطفة دورها مش بتكون على قد الشخص بس ولا بتقتصر عليه ولا بتتقنن في الحُب، لا لا.

كل رد فعل وسلوك وتصرف بيكون ناتج عن العاطفة، كل عمل إحنا بنعمله بيكون نابع من العاطفة، كل تقييم أو ترشيح أو شهادة بيكون مُحركها الأساسي عاطفة بعد مؤشرات تانية، حتى خوفنا على الحيو انات بيكون بدافع العاطفة.

تبدد الشخصية هيخليك تفقد كل ده، هتحس إنك ريبوت، إنسان آلي فقد الِحس والتأثر من اللي حواليه، إنسان منزوع العاطفة معندوش رحمة ولا تدبر هو رهن إشارة التشغيل فحسب، تحول من الروح للجماد، معتقدش إن حد مننا يرضى لنفسه إنه يوصل للمستوى ده، مش منطقي ربنا يكرمنا واحنا نهين بعض.

يومًا ما سوف يُرمم الله بداخلك ما هشمته التجارب، ويُعالج ما بقلبك من وجع و انفطار وتعلق، ويجمع شتات أمرك، حينئذٍ يهبك الله شخصًا يرى فيك القبول والحُب، وترى فيه الأمان والود، فتزهر وكأنك لم تذبل قط، وكأنك ترتوي طول الوقت.

فجر الثلاثاء 3:30 صباحًا.

من التكوينات الغريبة اللي بدأت بهزاروده دليل على إن كل شيء يحدث ما هو إلَّا عامل نفسي بحت، إن يوم التلات بيكون مش ولا بُد، ولأن الواحد مننا بيتأثر لمجرد ما يفكر بطريقة ما تجاه الأشياء، فيبدأ يتولد جو انا إن فعلًا يوم التلات بيكون يوم مش زي باقي أيام الأسبوع، هو الواحد مننا كده، ما بيصدق.

يعني مثلًا تيجي تقرا الأبراج تلاقي نفسك في كل الصفات اللي بتندرج تحت مسمى برجك، وده لإنك بتكون مُهيأ تمامًا نفسيًا وعقليًا إنك هتكون بالفعل نسخة تشبه صفات البرج بتاعك.

بالمناسبة ده نفس اليوم اللي اتوفت فيه زوجة الدكتور سامي، طبعًا هتصدقوا إن فعلًا كده يوم التلات يوم...مش عايز أقول!

طيب ما حريق القاهرة عام 1952م كان يوم جمعة مثلًا، زلزال

القاهرة مثلًا سنة 1992م كان يوم الأحد، غرق العَبّارة السلام 2006م كان يوم خميس مثلًا!، وهكذا.

بس لو فكرنا شوية، هنلاقي إن الأرض استغرقت مليارات السنين لمَّا اتكونت، وبعدين ربنا خلق اللوح المحفوظ اللي فيه دليل كل واحد فينا، وقبل ما الواحد مننا بيطلع ليه شهادة ميلاد، بتكون طلعت شهادة وفاته الأول بناءً على اللوح المحفوظ، يبقى كل حاجة بتحصل في حياتنا بتكون نابعة من إعجاز علمي رهيب!، لكن تأثرنا بيه بيكون عامل نفسي وتهيئة شخصية للأحداث فقط.

❁❁❁

Psychologically

لازم تعرفوا كويس، إن التهيئة النفسية هي اللي من خلالها بندخل أي مود، في يوم كنت خارج أنا والمدير من الشغل رايحين نفطر مع بعض، آه والله، في الشتا وفيه مطر بعض الأحيان.

المهم خرجنا واحنا راجعين حاسس إن فيه حاجة عمّالة تنزل على راسي من فوق، أنا بدون تفكير بقوله بدأت تمطر تاني يا ريس، فضحك أوي وهو بعيد عني بحوالي مترونص مثلًا، فبقوله ازاي بتمطر ومفيش مطر قُدامي، مع إني لو بصيت لحظة واحدة فوق هعرف اللغز فين، بعدين عرفت إنه بيضحك عليا، لأن مفيش مطر واللي كان بينزل على راسي عبارة عن رمل من البرج اللي لسه الناس شغالة فيه.

الفكرة هنا، إن أنا كنت مهيأ نفسي تمامًا إن ده مطر، وعقلي رافض إنه يتصور حاجة تانية، بناءً على الإشارات المصدرة ليه،

شعورك النفسي أكاد أجزم بأنه متسبب أساسي في كل شيء بيحصل ليك.

لو بدأت تدخل مود الزعل يومك هيتقفل، لو بدأت تتهيأ إنك مش جعان مش هتأكل، مش عايز تخرج مش هتخرج وهكذا، دي عوامل نفسية مش لازم تسلم نفسك ليها وقت ما الرغبة تزيد، قاوم عشان تقدر تكمل وتستمر من غير ما تيهت.

استيقظ الطبيب على كابوس الموت، جسمه مُشبع بالعرق بشكل مريب، مرتعش الأطراف، وكأنه في وسط الماء في شتاء قارس.

في خلال دقائق بدأ يستعيد ثباته تاركًا غرفة نومه متوترًا، متجهًا لشُرفة البلكونة على غير العادة ظنًا أنه يستوحي شعور الأمان منها، ليقع بصره على شباك منزل قديم، مُسدل عليه سِتارة من القماش ويرى خلفه شيء يتحرك، وكأنه شخص في علاقة حميمة.

البني آدم مننا غريب، أوقات بيكلم نفسه بصوت عالي عشان ميخفش، حصلت معاكم قبل كده، حصلت؟

ظل يحدق ببصره بشدة ليتأكد من صحة ما يرى خلف السِتار، إذ فجأة يُزاح السِتار، ليراه رجلاً عجوزًا ذو لحية بيضاء، وملابس يكسوها مزيج الألوان، وبؤرة تركيزه على لوحة بين يداه، يبدو أنه يمتهن الرسم.

التوقيت كان غير معتاد، لكن مظهر العجوز كان بسيطًا للغاية، ليشرد ذهن الطبيب في اتجاه آخر.

هل البساطة دليل السعادة؟ وهل السعادة يمكنها أن تجعل

صاحبها يقوم بأفعال جنونية؟!

– جائز.

ظل يراقب العجوز فترة طويلة، حتى بدأت الناس تدب في الشوارع فأغلق الشرفة، وبدأ يُعِد نفسه لليوم.

***

كالعادة، تستيقظ مروة، على صوت أحد الجيران بعد ما سمعت صوت مرتفع داخل المنزل، فحاولت أنها تتدخل لتهدئة الوضع، لكن هذا المشهد أصبح مألوفًا لها.

ولكنها تتعرض لأذى نفسي سيئ، ليس من المعتاد أن يتهمك أحدًا بالجنون ويصفوك بعدم المُبالاة، وحياتك تستمر دون تأرجح، شعرتْ حينها بأن الفرصة قد أُتيحت، والمُغلق قد انفرج أمامها.

خرجت في حذروترقب شديد، إذ بها تجد الباب منفرجًا، لكَ أن تتصوربأن الهروب يُصبح أحيانًا هو الأمان، هو النجاة!

عندما يكون الهروب هو المأمن، فعليك أن تتأكد بأن خزائن الرحمة من البشر قد نفذت، وأن السواد أصبح السِتار المُلفت للقلوب بدلًا من الأزياء.

خرجت وتغمرها سعادة عارمة، كطير تخلص من قيوده وعاد محلقًا في السماء، كشعورسجين أُفرِج عنه قبل موعده وعلى وشك لقاء العائلة، ظلت تجوب الشوارع في ترقب وحذرشديد، وهي لا تعلم إلى أي مكان ستأوي إليه، لم تتذكرسوى صديقها كريم.

رغم علاقتها السطحية به، إلَّا أنَّ كريم كان دائمًا يسرد تفاصيل حياته بالكامل عليها وإن كانت لا تُبدى له اهتمام حينها، فقررت الذهاب إليه، فتدخل القدر ليجمع الشتات، ويقتصر الطُرق.

***

(أحد أهم مستشفيات مصر للصحة النفسية)

في زيارة للطبيب كالمعتاد، و أثناء سيره داخل المستشفى وهو يتفقد مَن فيها ويدوّن في تقريره مدى رضاه عمَّا يراه، إذ يجد مجموعة من طلاب كلية التمريض وهم يلتقون بالمرضى لتطبيق المادة النفسية على أرض الو اقع.

ولكن مما أثار فضوله هو ذلك المشهد، إذ يجد المريض وفي يده ورقة وقلم، والطلاب هُم من ير اقبون بشدة، والبعض يمزح معه، والآخر يشده من ذراعيه، وأخرى تُنادي عليه، كل ذلك في أنٍ واحد.

أليس ذلك غريبًا بأنَّ مَن صنَّفه الجميع ووصفه بالمريض هو أشد تعبيرًا؟ أليس هذا إثبات بأن الطيبون تأتي عليهم الدنيا ومَن فيها؟!

تقدم نحوهم في ترقبٍ شديد ليرى الطلاب أشد ركاكة في التعبير تجاهه، ثم قال لأحد الطالبات:

– أنا خلصت يا ولاء.

فمدَّ الطبيب يده وأمسك بالورقة، ليجد بها بخط شديد الغر ابة عِبارة أشد ألمًا وتعبيرًا عمَّا يشعر به، إذ الورقة مدون بها:

«الولد نورَجل ناصح مجموعة من الشباب المَرحة يلهون به».

عندما قرأ ذلك الطبيب اعتلت أصوات السخرية من الطلاب، ولكن حينها انهارت ولاء من البكاء، فما كان منه سوى أنه دنى منها و اقترب مُطبطبًا عليها، ثم انصرف في هدوء تام.

أسوأ ما يُصيب الإنسان أن يشعر أنه في حالة دائمة من الاستهانة، أو أن يُعامَل بنوع من أنواع انتقاص الذات، يشعر حينها وكأنه فقد كرامته، فيختار الموت بإرادته.

يا صديقي تلك النظرات طالما كانت تؤلمني، تلك الثرثرة عليّ في ظهري كانت تصلني، تلك المو اقف والسخافات التي تدَّعي بأنها مِزاحًا مرارًا وتكرارًا تؤلمني، ولكنك لم تلتفت ولم تُبالي لحالي يا صديقي.

كنت أقبل بما لا أرغب فيه، خوفًا من أن أجرح شعورك باعتراضي فتماديت أنت بكل بطش، دون مُراعاة، لم تعد صديقي يا صديقي من وقتها حتى الآن.

وإذا بالطبيب يتوجه إلى المكتب المُعَد له داخل المستشفى، وفي عُجالة يُشكل اجتماع طارئ واصفًا بأن المريض النفسي يكن أشد حساسية وتفسيرًا للأمور بشكل مُفرط أكثر من الشخص الطبيعي بمراحل.

فالنظرة والكلمة تُشكل لهُ أحداث غريبة، من خلالها يكن التصرف ناتجًا، لعل ما كتبه المريض هو من و اقع ما يراه ويشعر به من الآخرين.

إن كان الطبيب لا يُدرك قيمة دوره، فلِما حُجِبَ هؤلاء عن

المجتمع، ربما الطبيعة تُعيد تشكيل بنائهم، وإن فشلوا هُم فيكن الفشل بأيديهم ليس بأيديكم.

ثم أوصى في تقريره، بإعادة الكشف على هذا المريض مَرةً أخرى، لثبوت مدى قواه العقلية والنفسية.

***

بعد 8 ساعات...

تذكرت مروة الحي الذي يقع فيه منزل كريم، لكنها غير قادرة على الوصول إلى المنزل، ظلت أكثر من ساعة وهي تطوف شوارع الحي بكل إشاراته ومحطاته وهي في ترقبٍ شديد خوفًا من أنَّ والدها يعثر عليها.

أثناء توقفها في إحدى إشارات المرور دون مبرر يُلزمها على ذلك، فيتدخل القدر، وإذا بكريم ينظر من نافذة الباص متأملًا تكدس السيارات، وإذا به يُصعق من المفاجأة، وبشكل هستيري يقول:

– مروة مروة.

ولكنها لم تسمع النداء، وبدأ الباص في التحرك، إذا به يحاول النزول حتى وصل إليها ممسكًا ذراعها، وبصوت مرتجف وكلمات متقطعة قال:

– أنا مش مصدق نفسي، وظلَّ يجوب حولها ليتأكد بأنها هي، بأنها حقيقية وليس هذا سراب. مكملًا:

– إيه اللي جابك هِنا ورايحة فين؟!

بصوت ممتلئ بالرعب:

– تعالى نروح أي مكان أنا هربت من البيت!

كان كريم من أُسرة أرستقراطية فكان طبيعيًا، أن يذهبا إلى المنزل، وبالفعل تحركا وكلًا منهم ممسكًا بيد الآخر، إنه الشعور الأروع على الإطلاق لكريم حينها.

قال لها:

– رغم بُعد المسافة، لكني أدركتُ بأن السير مع مَن نُحب، يجعل الطُرق قصيرة وممتعة وسهلة، أدركتُ بأن شعور الأمان مع مَن يُر افقنا يُهون علينا الحياة وعبئها، وحينها لا نُهزم قط، عندما نجد من يتمسك بنا تتضاعف قوتنا فنكن كالصخر لا نُكسر ولا نُهزم، فإنه الشعور الأروع حينذاك.

ذلك الشعور الذي يُشبه تزاحم الغمام ليكوّن سحابة تر افقنا الطريق وتحجب الشمس عنّا، الشعور الذي يُشبه تزاحم الفصول الأربعة أحدهم يتسارع والآخر يتنازل، حتى يصل الربيع إلى قلوبنا، فيُرَمم ما أصاب الفؤاد ويُنسيه كل مُر مَرَّ، فنزهر من جديد وكأنَّ لم يُصيبنا أذى قط.

– ساكتة ليه؟

– أبدًا، بس تعبت من المشي.

– يبقى مبتحبنيش، هههه.

وصلوا إلى المنزل، ودخلوا سويًا، وبكل لطف ولين وجد أسرته على مائدة الطعام، فقرروا أن يشاركوهم الغداء دون طلب الإفصاح من كريم عن شيء.

تلك هي طقوس هذه الأُسرة، التي جعلت الحرية والثقة منهجًا لهم، وبدأت علياء وهي الأخت الصغرى لكريم أن تشارك مروة في الحوار، وبعد ما انتهوا من الغداء قال بهدوء:

– أعرفكم بقى على مروة، مروة يا ماما اللي حكيتلك عنها كتير قبل كده زميلتي في المدرسة، واللي هتفضل مع علياء هنا فترة ده بعد إذنك يا بابا طبعًا، فمال برأسه، ثم قام يتناول فنجان قهوته في حديقة المنزل.

فتيقن كريم حينها بأنه منزعج فاستأذنهم بعض الوقت، ثم خرج لوالده، إذ به يرى والده يضع يده على قلبه ويقول:

– قلبي...قلبي.

ثم وقع جثة هامدة على الأرض، ظلَّ كريم يصرخ، حتى خرج كل من في المنزل ومعهم مروة، وفي عُجالة طلبت الأم الإسعاف، وتم نقله إلى أحد المستشفيات الخاصة، وسرعان ما دخل الطوارئ، فنظر الطبيب إليهم وقال:

– البقاء لله يا جماعة، من 10 دقايق.

عارف يعني إيه وجع اللحظة اللي بيموت فيها الأب، اللي بتموت فيها معاه كل دو افع الأمل والحياة، بيروح الأمان وكأنه بيُدفن معاه في اللحد، بتحس كأن ضهرك اتعرى و اتكسر، و إنك بقيت وحدك في دنيا ظالمة وقاسية لأبشع حد.

اللحظة دي بتفضل عايش بيها وبوجعها طول العمر، وبتفضل مفزوع من خبر الوفاة لأنه بيلاحقك طول الوقت، صحيح الوقت

بينَسي، لكن الوقت أضعف وأهزل من إنه ينَسيك إن حتة منك راحت وسط التراب، فلله الأمر، يعلم وحده كم نحن نشتاق ولا نستطيع.

دومًا يكن القدر أسرع، وتنتهي الرحلة لمن يظنوا أنهم في بدايتها، والروح تغادر في صمت وسَكينة، ولم يتبقى سوى جسد لا حول لهُ ولا قوة، إنها الدنيا ودنوها.

إنَّ الموت يؤلم الأحياء أكثر ليس الموتى، أكثر اللحظات ألمًا عندما يغيب عن الأُسرة فردًا، أكثرها وجعًا عندما تجد مكانه فارغًا في المنزل، تجد الملابس والحِذاء ومعطفه تكسوهم الوِحدة، تنظر إلى هاتفك فعينك تقع على اسمه فتُصاب بحالة لا وصف لها ولا تفسير.

بعد الانتهاء من إجراءات الدفن، وتشييع الجنازة، ذهبوا جميعًا لبيت العائلة في إحدى قرى الصعيد، ومعهم مروة كأحد أفرادها.

الساعة 2 ظهرًا، ذهبتْ الأم إلى غرفة مروة بعد اعتياد على نومها الطويل، إذا بها تطرق الباب مَرة تلو أخرى فلا صوت ولا رد.

دفعتْ الباب فانفرج على مصراعيه، فلم تجدها على سريرها، شتَّ عقلها وبدأتْ تنادي عليها في جميع أرجاء المنزل.

بعدما كان الأب خرج منذ ساعتين، بعد وقت عصيب مليء بالدراما بينهما، فأسرعتْ إلى الهاتف، مُتصلة:

– أيوة يا عصام، بصوت لا يُفسر ما يُقال فيه من البكاء.

ليرد قائلًا:

– فيه إيه، إهدي مش عارف اسمع منك حاجة.

– مروة مش في البيت.

– إيه؟ راحت فين يعني.

صوت البكاء كان أعلى من إنها ترد، فأغلق المكالمة، متجهًا على الفور إلى المنزل.

***

بعد شهرين، بدأ هشام في رحلة البحث عن عمل، وجد إعلانًا يطلب موظفين خدمة عملاء، بدأ يستعد، وبالفعل بعد أسبوع ذهب لإجراء المقابلة الشخصية لكنه لم يُوّفق.

❁❁❁

اليأس

Whoever tries and tries will not fail

تلك التفاصيل التي تُظهر معاناة الأيام، تلك النظرة التي تؤكد بأنك ما زلت تقاوم وتُصر، تلك ما تُسمى بالصداقات، من يقع منك ومن يتشبث فيك، ولكن في طريقك لا تُبالي، تلك مرارة الأيام التي تعيشها وحدك، ويظن الجميع بأنك على ما يُرام.

ذلك الفقد المستمر الذي يصيبك بشيء من التقصير واللوم المستمر ولكنك ما زلت تسير، حتمًا ستصل ولكن وحدك بعدما تساقط منك كل مُزيف ومُدَّعي.

ستصل وتَبلُغ جبل الحُلم، وتنظر حينئذٍ أسفل الوادي فترى

الأشرار الذين طالما سعوا لفشلك بشتى الطُرق، حينها ترفع رأسك إلى السماء وتقول يا رب الآن قد عبرت بك واجتزت ونجوت ووصلت بك فاللهم بارك.

عاد هشام إلى منزله وتطرق إلى النوم، ثم استيقظ بعد الخامسة مساءً ليلتقي بصديقه على مقهى بـ 23 يوليو بوسط البلد متناسي الدنيا وما فيها وكأنه يملُكها.

وبدأ يعرض عليه تجربته الفاشلة في العمل كموظف خدمة عملاء، وكلًا منهما الدنيا لا تسع صوت ضحكهما، ولكن سرعان ما انتقص المرح وامتزج بالحزن.

فلاحظ ذلك صديقه وأصر على إنه يبوح له، فتحدث بعض الشيء عن العلاقات السابقة، وبعض الشيء عن فرص العمل الضئيلة التي طالما ظلَّ يبحث عنها ولم يجدها.

فعرض عليه العمل في إحدى صالات الرياضة (الجم) بأن يكون مسئول بها عن الحسابات والتسجيل، وبالفعل و افق هشام قائلًا:

– جم جم يا عم أهي أي حاجة نخرج بيها من الملل ونحس إننا بنشتغل.

– خلاص سيبني بس يومين أرتب مع صاحب الصالة وهكلمك على طول يا عم.

– تصدق ياض أنا هعزمك على كوباية شاي من أم 7 جنيه حلال فيك، وعادوا مَرة أُخرى يتبادلان الضحك بكل أريحية.

هكذا الإنسان تُغذيه كلمة، ويتغير موده بكلمة، فسبحان من

جعل الكلمة صدقة، سُبحانه.

***

ظلَّ حاتم جالسًا وحيدًا بعدما تركته سلمى وذهبتْ، وظلَّ هو يُبدل مزاجه ما بين مشروب وآخر، ويتصفح في سجل أرقام هاتفه القديمة مناديًا الجرسون.

في نفس اللحظة تدخل سيدتان كلاسيكيتان، يتميزان بثيابهم الأنيق وعطرهم المُلفت، فبدلًا من أن يتكلم، نظر إليهم ثم تنهد!

ظلَّ الجرسون و اقفًا لثو اني، حتى ناداه عميلًا آخروهو لا يشعر، ظلَّ يتبعهم ببصره، حتى جلستا في ركنٍ خافت الإضاءة، وأحدهما ممسكة بجريدة الأخبار والأخرى ممسكة بكتاب مدوّن على ظهره «اطمن" حسب ما رأى.

نظر تجاه البار، ونادى على الجرسون مرةً أخرى، نظر إليه مبتسمًا قائلًا:

– هاتلي حاجة فْرش.

أحيانًا نجد المتعة في تأمل الأشياء التي تبدو للعالَم صغيرة، ظلَّ يُر اقب إحداهم، معجبًا بلون فستانها، مندهشًا من تناسق الألوان، ير اقب رجفة يدها قبل تناولها الفنجان، وشعر بأن الهدوء قد فاح من هذا الركن، لحظات، وإذا بسيارة تقف أمام الكافيه من خلف الحائط الزجاجي، بها رجلًا يُلوح بيده، فيخرجا سويًا في عُجالة.

– جرسون لو سمحت الشيك.

مال الجرسون برأسه مبتسمًا، ثم ذهب إليه في ترجل وهدوء تام، أمسك الشيك ووضع الحساب، ثم أخذ مفاتيحه وخرج، متأملًا ما قضاه من وقت ممتع في المر اقبة، ثم استقل سيارته متناسي تمامًا علاقته التي أنهاها من قبل، ذلك المرض يفصل الإنسان عن الو اقع حقًا، مرض الفصول الأربعة.

***

بعد 10 دقائق، عاد والد مروة إلى المنزل، وهو في توتر شديد، ليسأل زوجته، أين مروة؟

فردت قائلة:

– دخلت أصحيها ملقتهاش في أوضتها، انتَ السبب، رجعلي بنتي، اتصرف.

– بس بقى اخرسي، انتِ متعرفيش حاجة ف حياتك غير اللوم والعياط والنكد.

– انتَ ضيعت البنت، وبعدين بتقولي اخرسي، منين الجبروت والقسوة دي!

فلطمها على خدها بيده، حتى بدأت الدماء من شفتها تثور، ثم تركها وذهب يبحث في الشوارع، في المستشفيات، في أقسام الشرطة، فلم يجد لها طرفًا.

نظر في ساعته، فكانت حينها الخامسة مساءً، فلم يتمكن من الذهاب إلى المدرسة ليسأل أحد أصدقائها، ظلَّ يبحث في الشوارع حتى بعد منتصف الليل، ثم عاد ليجد الأم كما هي تبكي، ولكنَّه حينها

لم يكن لديه الجُهد ليبادلها الحديث، حتى نام وهو جالس بملابسه.

في اليوم التالي استيقظ الأب بعد ساعات، لصلاة الفَجر، وهذا لم يحدث منذ سنوات طويلة.

إن الكُتب عند تركها وإهمالها يُغطيها غُبار التراب، هكذا القلوب يُغطيها السواد وتملؤها القسوة، عند بُعدها عن ربها.

ظلَّ مستيقظًا حتى دقتْ الساعة السابعة صباحًا، ثم توجه إلى المدرسة، وذهب إلى الإدارة ليعرف من هُم أصدقاء ابنته، فكانت الطامة أنهم لم يجدوا لها صديقًا أو صديقة!

كاد أن يطيش عقله، أوشك على الصَرع، لكن سرعان ما قالت مشرفة الباص، بأنها دومًا كانت تجلس بجوار طالب اسمه كريم.

في عُجالة من الأب وفزع، أين هو؟ أين عنوانه؟ بحثوا عنهُ فوجدوه غائب، بعد إلحاح وتوسل عرف عنوانه ثم ذهب إليه، فلم يجد شيء تدب فيه الحياة، والمنزل مغلق بكل نواحيه، ظلَّ يبكي كالطفل، كالطير المكسور جناحيه، لا قادر على التحليق ولا قادر على السير، حتى وصل إلى المنزل وهو في أعلى درجات اليأس والكسرة.

استقبلته الزوجة، بالبكاء والصراخ، فانهال عليها بالضرب كالعادة، ثم ترك المنزل وخرج مَرة أُخرى.

***

عادت سلمى إلى منزلها بعد انتهاء علاقتها وكل حُزن العالَم يتملكها.

اللحظة اللي بتنتهي فيها علاقتنا بشخص ما، بتشبه لحظة دخول الاحتلال للوطن، الوصف وقتها بيكون كلمة واحدة، وهي الخراب!

فعلًا مخلفات العلاقة بتكون عِبارة عن خراب قلوبنا وفقدنا في ثقتنا، وتدمير ثوابت وقيم كبرنا عليها، مش سهل خالص إننا نتخطى المرحلة ببساطة، لأن التعود بيكون طبع جوانا، وبنكون اتعلقنا وحياتنا اترتبت واترسمت على الشخص ده، وفجأة كده كل حاجة تروح، اللحظة دي إحنا حقيقي بنكبر فيها قد اللي عشناه طول عمرنا، لكن للأسف محدش بيقَدر اللي بنمر بيه، لازم تعرف إن محدش هيقدر يعرف حجم مشكلتك ولا كم وجعك غيرك.

ابعد حَبة لكن متكونش وحدك، خلي في جنب للعائلة، الناس دي هي الوحيدة اللي هتتحملك، حتى لو مكنش فيه بينك وبينهم تواصل عالي، هيقدروا يفهموك كويس جدًا، ويفهموا الحالة اللي بتمر بيها.

بلاش تنعزل لأنك مش هتخف، انت بتتعب أكتر، بلاش تكون وحدك لأنك مش هتنسى، انت هتفتكر، وصلتْ؟

حينها وجدت نفسها تتصل بصديقة عُمرها كاترين قائلة:

– أنا وحاتم سيبنا بعض.

– إيه اللي حصل؟

– معرفش خرجنا عادي ومَرة واحدة لقيته بيقولي أنا عايز ابعد، حاسس إن العلاقة دي مفيهاش توافق، وان اللي بينا كان مجرد اهتمام ملوش علاقة بالحُب.

كاترين:

يعني بعد كل الوقت ده فجأة اكتشف إن مفيش حُب؟

هولوكُل اللي بينكم بتفاصيله ده مش حُب، ازاي بيكون الحُب؟

– تصدقي بقى رغم إني مصدومة بس صدقيني ارتحت.

أنا اتعلمت إن العلاقة اللي مفيهاش تتويج رسمي، ومفيهاش وعود واضحة يشهد عليها ربنا والعائلة، علاقة مُزيفة ومُرهقة حتى لو مودنا فيها بيكون حلو، بتكون عاملة زي غزل البنات حلاوتها مش بتدوم، أنا مش زعلانة عليه لأ، أنا زعلانة على نفسي.

في ناس الواحد لازم يحمد ربنا إنهم خرجوا من حياته بدري بدري.

يا كاترين، مفيش أصعب من إنك تعملي حاجة انتِ مش راضية عنها، وبتعمليها عشان خاطر حد بتحبيه وبس، كل مَرة بتعمليها بتيجي فيها على نفسك، فلما يكون وجعك من الشخص ده بالتحديد بيكون الوجع مُضاعف والصدمة تكسر.

❁❁❁

المعاملة بالمثل (Reciprocity)

أنا مبحبش فكرة المُعاملة بالمثل دي، ليه يكون إنسان أناني، فاعمل زيه وأكون أنانية، ليه يكون عديم الرحمة وبيقسى فعشان أعامله بنفس أسلوبه أتعلم القسوة، ليه يكون إنسان كذاب مع إني مبحبش الكذب فأتعمد إني أكذب عليه عشان أوجعه زي ما بيوجعني، لأ، أنا كده بعد فترة هكون شبه نسخة مطورة منه، أنا

بخسر نفسي مش بخسره وحده.

الواحد لو هيعامل حد بالمثل لازم يكون في الحنين واللين والحاجات اللي تعلي وبس، في الحُب والخوف على اللي معاه، على الأقل الواحد يتغير للأفضل، حتى لو العلاقة دي مكملتش يبقى الواحد فيها مخسرش واستفاد.

كاترين:

– أنا مكنتش متوقعة على فكرة انك تكوني بالقوة دي.

– ولا أنا كمان مصدقة نفسي، سبحان مبدل الشعورمن الرغبة للرهبة.

– فعلًا فيه آية عندنا في (الكتاب المقدس) ديمًا افتكرها وقت أي ضعف أووجع بتقول:

"لأن الرب يُحب الحق، ولا يتخلى عن أتقِيائِهِ. إلى الأبد يُحفظون. أمَّا نسل الأشرار فينقطع".

– الحمد لله على كل حال.

– بقولك ما تيجي نخرج بكرة، بقالنا أكتر من نص ساعة يا ستي بنتكلم، لو اعرف إنك لمَّا تسيبيه هتكلميني كتيركده كنت سعيت أنا من زمان.

– خلاص إن شاء الله نخرج.

***

يقف الطبيب كالمعتاد في شرفة مكتبه، ويحدق في وجه المارة، ليضع لكلًا منهم سيناريو من تصوره، خالقًا لكلاً منهم عُذرًا يناسب تعبيروجهه، يجلس على الكرسي بعد دقائق من التأمل، ويمد قدميه بكل سلاسة.

يتذكر وفاة زوجته، يتذكر ذلك الرسام، يتذكر بعض المرضى الذين حُفرت أسمائهم في ذاكرته رغم كثرة العدد، يتذكر نفسه في محطة قطارستراسبورغ الفرنسية أثناء رحلة له.

– الجرس يدق، فيدخل المريض كالعادة، ليجد الطبيب في حالة من الهدوء، تشبه الأسماك في موسم الشتاء، وهم أسفل بؤرة الشمس في الماء، لا يُهدد سلامهم سوى البشر.

بعض لحظات، عاد بكامل تركيزه، ورحّب بالمريض، وبدأ في جلسته.

***

في اليوم التالي، ذهب حاتم إلى نفس الكافيه.

دائمًا نرتبط بالأماكن الشاهدة على الحُب، على التفاصيل، نحِن إليها بحُكم الأيام، لكن من الدهشة أن يشهد المكان بداخله تفاصيل الفراق واللقى سويًا.

ليس غريبًا هذا على قلب الرجل في معظم الأحيان، يُنهي علاقة ثم يتطرق إلى أُخرى، يهدم روحًا ثم يبحث عن أُخرى، وهكذا تبدو الحياة لأحدهم.

جلس، فبادله الجرسون بابتسامة وكأنهما أصبحا أصدقاء، في

ترجل ممزوج باللطف، أحضر إليه مشروبه المفضل «من القهوة الممزوجة بنكهة البندق» في الخلفية مزيكا لإحدى أغنيات السِت.

ظلَّ يراقب الرُكن الذي جعله يخرج من منزله لأجله تحديدًا، ظلَّ يرسم في خياله شكل فستانها، يتصور ضحكتها، يستشعر برفانها، مضى من الوقت أكثر من نصف ساعة، وهو جالس يتأمل تلك التفاصيل ما بين النظر إلى هذا الركن وما بين النظر إلى هاتفه.

ظنَّ بأن الصدفة لن تعود، وأنَّ ما أُعجب به ما هو إلَّا سراب وقد تبخر، بدأ يُلملم أشيائه مناديًا:

– جرسون.

إذ بالباب فجأة ينفرج، وتدخل السيدتان ويفوح عطرهما في المكان بأكمله.

يذهب إليه الجرسون وينظر إليه في تبسّم ممازحًا إياه:

– طبعًا عايز حاجة فرش!

يميل برأسه، ثم يتنهد ويضع يده على صدره متحسسًا وكأنها تسكنه.

إحداهُما تشير إلى الجرسون دون صوت:

فيذهب إليهم في عُجالة مبتسمًا واضع إحدى يداه خلفه.

ظلَّ يراقب الحديث لكنه لم يسمع شيء، نظره يفضحه من شدة تحدقه إليهم، إحداهم تُلاحظ ذلك، ولكنها تتجاهله.

عظيمة تلك الفتاة، التي تتجاهل كُل من حولها، وكأنها وحدها في الكون لا أحد يضع قيودًا على حريتها، لا أحد يُعكر لها صفو مزاجها، ولا أحد يمكنه الوصول إلى قلبها بثرثرة الكلام فقط.

الجرسون:

– اتفضل يا فندم مانجة فريش.

همس إليه قائلًا:

– ممكن أسألك سؤال؟

– طبعًا يا فندم في خدمتك.

مبتسمًا:

– ممكن أعرف هي طلبت إيه.

– هي مين يا فندم؟

أشار بعيناه نحوها، فتبسم الجرسون قائلًا:

– هوت شوكليت ثم ذهب.

بدأت أحدهم تشير بيديها وهو لا يعرف السبب، وهو بكل هدوء ير اقب في صمت، كيف تنظر أحدهم للأخرى وتنظر إليها مُعيرة كل اهتمام، دون ملل أو عبث، لا يرى سوى الابتسامة فقط، أمسكت الفتاة التي اغتالت قلبه من المَرة الأُولى هاتفها، ثم مالت عليها الأُخرى ونظرت في الهاتف ولأول مَرة يسمع صوت ضحكهما.

مضى الوقت وكأنه دقائق، إذا به يجد السيارة خلف الحائط

الزجاجي، وإحداهم تدفع الحساب، والأُخرى تلوح بيدها دون أن تتمتم بشيء لمن في السيارة، في لحظات كل منهم يحمل حقيبته، ويخرجان بشكل يشبه في السير الطاووس.

أصبح مندهشًا غاضبًا، وبشعور داخلي يقول:

كيف يأتي هذا الرجل كل يوم ليقطع أبهى لحظات سعادتي، و أنا و اقفًا مكتوف الأيدي لا أفعل شيء، خرج من الكافيه، ولكن سرعان ما ذهبوا جميعًا، فظلَّ يتبع بصره الطريق، ثم عاد مَرة أُخرى للجرسون، الذي ظنه صديقه!

في غضب، طلب الشيك، ووضع بداخله الحساب، ثم وضعه على الطاولة بشكل حاد و انصرف دون شكر أو حديث وخرج، فشعر الجرسون بالإهانة حينها، لكنَّه تقبل ما حدث.

***

بعد 10 أيام اتصل صديق هشام به، ليخبره بأن يأتي غدًا الساعة العاشرة صباحًا لإجراء مقابلة مع صاحب الصالة الرياضية (الجم).

في اليوم التالي، استيقظ وبدأ يستعد، ولكنَّه وصل الساعة 10:20 وكان في انتظاره صديقه.

– إيه يا إتش أول يوم تأخير كده.

– يا ابني أنا صاحي من بدري والله، بس الطريق والزحمة بقى.

– يلا يلا خليك تدخل، شوف أنا هستناك هنا لحد ما تخلص معاه، متقلقش أنا مكلمه عنك.

دخل، وألقى التحية.

– أهلًا وسهلًا يا هشام.

– أهلًا بحضرتك يا فندم، لا فندم إيه هنا كابتن.

– قولي اشتغلت في جم قبل كده؟

– الحقيقة دي أول مَرة.

– عمومًا الموضوع بسيط.

– إنت هتكون مسؤول عن فتح المكان وقفله، والحجز للكباتن إداري يعني، كل واحد في المكان ليه دور معين، محدش بيتدخل في شغل حد، ويمكن بفضل الله ده اللي مميز المكان هِنا، بنفتح المكان 10 صباحًا، وبنقفل 2 صباحًا.

– تمام، إن شاء الله أكون قدها يا كابتن.

– خلاص هنبدأ من يوم 1 في الشهر إن شاء الله يا هشام، وطبعًا المرتب زي ما كلمك الكوتش عليه.

– اه اه تمام زي الفل.

خرج وهو مبتسم لصديقه، وأخبره بكل ما حدث، بقولك إيه:

– ما تيجي نلعب دور شطرنج مع كوبايتين شاي كده، قبل ما ندخل على المفحتة الرياضية دي هههههههه، متخفش وتجيب ورا كده، أنا عازمك، عايز فلوس؟

– يا عم اتلهي انت طايل تاكل هههه طب يلا بينا.

ذهبوا إلى أحد مقاهي وسط البلد، وبدأت أيديهم تتحرك بسلاسة في تحريك قطع الشطرنج، وكل منهم يحاول سحق الآخر لينتصر، نظر هشام لصديقه وقال:

– بقولك إيه، فيه مشوار عايز اعمله قبل ما ابدأ الشغل، عشان أكيد مش هعرف أفضى كتير تاني.

– خير يا إتش؟

– يا ابني أنا عمري كلمتك غير في الخير.

– هههههه ربنا يستر.

– مشوار لحد شارع شامبليون، هنشوف حد هناك!

– شامبيلون! وهنشوف حد؟ هو انت تعرف حد غيري؟!

– إفصل بقى بتكلم جد.

– تمام نروح ونشوف أخرتها معاك.

– وصلنا يا عم.

(عيادة دكتور سامي فخر الدين استشاري الطب النفسي)

– انت تعبان؟

لأ كنت تعبان.

– تعرف تسكت، أنا هدخل اسلم على الدكتور 3 دقايق وهخرجلك.

بالفعل، استأذن من مسؤول الكشف إنه يبلغ الدكتور، بوجوده.

لم يطل الوقت، وفور خروج المريض دخل هشام.

– ازيك يا دكتور.

– إتش حمد الله على سلامتك يا بطل، عاش من شافك، هو إحنا كده مبنعرفش بعض غير في الأزمات.

– هههههه والله يا دكتور ربنا يعلم مكانتك عندي، أنا إن شاء الله أول الشهر همسك جم، فقولت أجي اسلم عليك الأول.

– في العيادة يا إتش في العيادة هههههه.

– طيب يا سيدي ألف مبروك وخليك على اتصال دائم، وقت ما تحتاج أي حاجة انتَ عارف هتعمل إيه كويس.

– طبعًا يا دكتور، أستأذنك بقى.

– اشرب قهوتك.

– لأ خليها على القهوة هههه، سلام عليكم.

خرج مبتسمًا وكأنه وجد أبًا بعد فقد.

– مين ده يا هشام، وتعرفه منين.

– يلا طيب وهحكيلك لمَّا ننزل.

***

بعد ثلاثة أيام، لم يَعد والد مروة إلى المنزل، وهو يبحث عنها، لم يترك مكان إلَّا وذهب إليه، بدأ يمتلكه شعور التقصير واللوم.

أسوأ مرحلة قد يصل الإنسان إليها هو أن يلوم نفسه، وكأنه أدرك بأنه السبب في كل ما حدث.

عاد إلى المنزل منكسرًا حزينًا، بدأ ينادي على زوجته لم تجيبه، بدأ يبحث في البيت بطريقة تشبه اللصوص عند السرقة، ذهب إلى غرفتها فلم يجدها ولم يجد ثيابها، حتى تيقن بأنها تركت المنزل وما فيه، فسالت دموعه كالأطفال.

والدة كريم قائلة:

– إحنا هنرجع بيتنا، وبصراحة مش عارفة هنعمل إيه مع صحبتك دي، يا ابني الموضوع بقى شكله مُحرج، وشايفة إنه ميصحش كده.

– ولو أنا قولتلك يا ماما إن مروة دلوقتي متعرفش في الدنيا غيرنا؟

– ازاي يا ابني وأهلها؟

– مروة هربت يا ماما من البيت، لأن أبوها شايفها مجنونة، وبيدوها جلسات كهربة كمان.

– إيه؟!

– بصي أنا مش عارف أعمل إيه زيك، بس كل اللي اعرفه إن بابا، رحمة الله عليه، علمني إني متخلاش عن حد وقت المحنة، واعتقد

انتِ كمان نسخة من بابا.

– أكيد طبعًا يا حبيبي، مش هنقفل بابنا في وش حد، بس فعلًا الموضوع صعب، ممكن أهلها يبلغوا عنها إنها مختفية، أو حتى مخطوفة، تقدر تقولي وقتها هنعمل إيه؟ محدش هيصدقنا.

– يا ماما ربنا معانا، و أكيد إحنا قاصدين الخير.

– خلاص إحنا كده كده هنرجع بيتنا بكرة، ونشوف هنعمل إيه في الموضوع ده.

كانت صدمة للزوج الذي عاد ولم يجد زوجته في المنزل، التي لا تعرف أحدًا سوى خال لها ومن وجهة نظره بائس ولا يعرف أين هو بالمَرة، لأنه كان لا يُرحب بالحديث عنه تمامًا.

– هو ممكن فعلًا الواحد يختار البُعد بعد القُرب؟!

الحقيقة اه، الواحد مننا لمَّا يقرر إنهُ يبعد، بيكون اتمسك بكل حبال الأمل والتغيير إنه يحصل، وللأسف حصل العكس.

إحنا بنبعد لمَّا نحس بقلة قيمتنا، لمَّا نشوف إن الشخص اللي المفروض يكون حِنين علينا يقسى علينا ويوجعنا بالشكل ده، لمَّا الشخص اللي بنتحامى فيه نهرب منه، لمَّا تكون لغة الحوار بينا ديمًا خلاف وإهانة واتهام جزافي بالتقصير، وقتها بنحس إحساس مبنعرفش نترجمه غير بالبعد، فبنبعد واحنا ضميرنا مرتاح، حتى لو كان نفسنا إن العلاقة تدوم وتكمل، البُعد مكسب في حاجات كتير، البُعد اللي تلاقي فيه راحتك متستناش عليه لأنه مكسب.

بدأت تطرق باب قديم أوشك على التآكل، جدار وبيت شبه

مهجور لكنه شاهد على عصرًا قد مضى، تلك البيوت أحيانًا تُعد من التُراث وسكانها من النعم.

عندما وقع نظرها على العجوز (خالها)، لم تجد ما يصف حالها سوى أن احتضنته بقوة وبكت، رعشة يداه وهي تطيب خاطرها، وسيره وهو محني بعض الشيء ولبسه الممزوج بالألوان، تلك التفاصيل أشعرتها بالأمان، هو رحب بها دون الخوض في تفاصيل كونها هي.

***

– احكيلي بقى يا هشام إيه حكاية الدكتور سامي ده؟

– يا ابني، هو انت تفتكر الفترة اللي نهيت فيها علاقتي بسما؟

– آه فاكر أم الأيام دي يا عم، افتكرلنا حاجة حلوة.

– أهو أنا الأيام دي بقى، طبعًا اختفيت عنك فترة، كنت بروح فيها للدكتور سامي، عارف انتَ اللي هو كنت محتاج حد يفوقني بجد، بص تقدر تقول كنت مريض نفسيًا، وطبعًا انت جاهل مش هتفهم حاجة!

شعور حلو أوي إنك تعرف قيمة نفسك، وقد إيه كنت ضايع، تقدر تقول معدوم الهوية، فارغ من الداخل بدون أهداف، مبتعملش حاجة غير إنك تتسلى على مشاعر الناس.

فعلًا والله يا أخي كل حاجة بتحصل بقدر، وديمًا القدر فيه شيء جميل، لكن مبنعرفش نشوف الحاجة دي في وقتها، أنا فضلت أتابع معاه فترة، لحد ما قابلتك كده، فحسيت و اتمنيت إني لازم أحافظ

على علاقتي بيه.

– انت لسة بتحب سما؟

– لأ، لكن معاها أو بفر اقها عرفت يعني إيه حُب، علمتني ازاي أحب اللي يكون موجود في حياتي، صعب أوي تلاقي حد يتحملك، ويتحمل لغبطتك وضغطك وعصبيتك، صعب تلاقي حد يقبل بيك و انت أساسًا ر افض نفسك، عارف الشخص ده بيظهر مَرة واحدة في العُمر، وقتها لازم تفحت في الصخر عشان ميضعش من إيدك.

– انت عايز تنساها صح؟

– لأ أنا عايز ارجع.

– طيب ما ترجع!

– لأ ما هو ما ينفعش.

– انت هتجنني يا عم.

– دي الحقيقة، فيه ناس بتتخسر، مبيخسروش هُمَ حد، و أنا خسرتها.

– عارف يا هشام، أنا أول مَرة أحسك اتغيرت بس بجد.

– أنا كمان يا صاحبي والله، رغم إني خسرت العلاقة دي، لكن فعلًا البنت دي علمتني ازاي مخسرش حد تاني، عارف المَثل الصيني اللي بيقول لا تعطيني سمكة هو ده، هههههه.

***

– هننزل النهاردة يا سلمى.

– معلش أنا آسفة يا كاترين والله، خليها وقت تاني.

– فيه حاجة ولَّا إيه؟

– لا أبدًا بس عايزة ارتاح شوية كده.

– طيب ما نخرج نغير جو وندردش.

– أحيانًا الواحد لا بيكون قادر إنه يتكلم ولا يناقش ولا حتى يسمع، الكلام أوقات كتير بيكون مُرهق، فبنختار البُعد عن عيون الناس.

– ليه بتقولي كده بس؟

– الظاهر اتعودت على كده.

– كده ده اللي هو إيه؟

– اتعودت إن الحاجات الحلوة متجيش، واللي نفسي فيه مابيحصلش، أنا حاسة إني مليش الحق في الدنيا افرح.

– مين قالك الكلام ده؟!

– محدش قالي حاجة، أنا شوفت بعيني وعشت.

– أنا مش فهماكي.

– يا كاترين، صعب أوي حد يضيّع 4 سنين من عمره، على أمل إنه يفرح وإن الحاجة دي في الآخر تكون وياه، هو سهل يعني إنك تحسي إحساس العجز تجاه نفسك؟ أنا ضهري اتكسر مرتين، مَرة لمَّا

مات بابا، ومَرة لمَّا اتسبت بدون ذنب.

– يا سلمى أنا عارفة إن محدش مقدر حالتك ولا حاسس بيكي، محدش فاهم إنك بتمري بمرحلة صعبة، هُمَ فاهمين إنك متغيرة معاهم وبس، مش عارفين إنك مدمرة نفسيًا، فمتحوليش تشرحي لحد وترهقي نفسك أكتر من كده، أنا فهماكي صدقيني.

– سبيني لوحدي و أنا هكون مرتاحة.

– لا طبعًا مش هينفع.

– أنا عارفة يا كاترين إنك بتحبيني و...

– الحُب مش كلام، ولمَّا اسيبك في وقت زي ده يبقى اللي بينا تعود ملوش علاقة بالحُب والعِشرة.

بدأت كاترين تسمع صوت مبحوح مخلوط بخنقة بكُاء، بدأت تبكي هي الأخرى.

البنات دول متقدرش تتوقعهم، البنت صاحبتها تكون مبسوطة هي كمان تتبسط أكتر، تعيط تشاركها أحزانها، تُشكر في واحد من غير ما تشوفه تُشكر فيه، يزعلها يبقى الله يرحمهُ.

عارفة يا كاترين، أنا لمَّا قولتلك سبيني لوحدي، كنت فعلًا عايزاكي تقوليلي لأ، كنت عايزة أحس إني مهمة في حياة حد.

– والعذرا بحبك، يلا قومي غيري و أنا هعدي عليكي وننزل مع بعض.

بقولك إيه، أنا هعزمك على سينما.

– هو فيه بنتين بيدخلوا سينما مع بعض؟

– مش إحنا هندخل؟ آه.

– يبقى فيه ♥.

تعرفي أنا أوقات بخرّج نفسي، صدقيني زي ما بقولك كده، أنا اتعودت إن كل حاجة حلوة أكون أنا سببها، مش طرف تاني، يلا يلا أنا جيالك.

ستصل في مرحلة ما إلى الاكتفاء، حينها ستُصبح دون الحاجة لأحد، لا يؤثر عليك غياب أحدهم، ولا يُعيقك تأخير أحد، في تلك المرحلة تكن قد وصلت لقمة نُضجك الذي طالما عشت تقرأ عنه.

فعليك أن تُدرك بأن ما تقوم به يقع على عاتقك وحدك، لأنك وحدك متخذ القرار.

***

بعد مرور 21 يوم

(من داخل أهم مستشفيات الصحة النفسية).

يعرفه الجميع، بدءً من مسئول الأمن، وصولًا إلى مهندس النظافة داخل المستشفى، الجميع ينظر إليه وعيونهم تتوهج من اللمعة، كل صاحب طلب في المستشفى ينتظر عودته، حتى يُلبي له طلبه.

هو لم يكن طبيبًا في أعينهم فقط، بل مُعلم وأب لهم، في ترجلٍ واضح في ساحة المشفى، وقبل التوجه إلى المكتب المُعَد لاستقباله،

فعل عكس ما يفعل أكثر من 90% من أصحاب الكراسي والمناصب.

اتجه إلى عنبر المرضى، وظلَّ يجوب حتى رأى (نور)، فوجده جالسًا في وضع الصلاة، فابتعد دون همس؛ ظنًا منه أنه في لحظات تجلّي، حتى وإن كان لا يفقه شيء عن إقامة شعائر الله في نظر العامة.

ثم عاد بعد ذلك إلى مسؤول الكمسيون الطبي، لينظر في تقرير الكشف المُكلف به من الزيارة السابقة، لتحديد موقف نور الطبي ومدى قواه العقلية والنفسية، وطالب أيضًا إحضار الملف الخاص به.

– نور صلاح، إيه ده الملف الخاص بحالة رقم 6707، دي كلها حالات؟

– لأ يا دكتور رقم 6 الكود عندنا هنا.

– هو اسمه فعلًا نور؟

– انت عارف إننا في العادة مبنخدش معلومات من المرضى لأنهم هنا بسبب عدم اتزانهم العقلي أساسًا، لكن ده الاسم اللي دخل بيه.

– مين سلمه للمستشفى هنا؟

– وصلنا من قسم قصر النيل.

– اه من ضمن الحالات الإنسانية يعني (مبتسمًا في خجل).

– تمام يا دكتور.

– طيب الأخصائي، محاولش يعرف منه أي حاجة عنه تاني؟

والله بعد ضغط عليه في الكلام، قال رقم تليفون، لمَّا سألنا عن الرقم ده بتاع مين، قال معرفش، المهم اتصلنا بالرقم، طلعت سِت، كلمناها وطلبنا منها تحضر في المستشفى عشان تشوفه وتتعرف عليه، الغريب بقى إنها جت المستشفى بعد 21 يوم من اتصالنا.

– اه، للدرجة دي، طيب وبعدين وصلتوا لإيه معاها؟

– أبدًا طلع ابنها!

– هههههه ببساطة كده.

– والله شعورها كان أبسط من كده، بعد ما اتعرفت عليه، شافته بعدها مرتين بس، ومن سنة مسألتش عليه.

– التقرير بيقول إن عنده كهربة زيادة ع المخ، لكن مش بالضرورة يكون عنده خلل عقلي، لأن نسبتها ضئيلة جدًا، والطبيعي إن كل واحد فينا عنده نسبة معينة من الكهربة دي، انتوا متأكدين إن المريض ده غير متزن؟

– هو عنده شيزوفرينيا.

– انت عارف إن اعتبارًا من 2013 لا يوجد أي اختبار موضوعي للفحص، الفصام أو السكيتسوفرينيا لا تدل على «انقسام الشخصية» أو اضطراب انفصال الهوية ودي حالة نفسية غالبًا ما تختلط على معظم عامة الناس.

ازاي عنده انفصام وهو بيقول معلومات حقيقة، ودي عكس

تصنيف حالته، لأ وكمان بيتأثر بمن حوله، أنا عايزك تتعامل مع المريض ده بطريقة مختلفة تمامًا، من بكرة هتفَهمه إنه مسؤول أمن، لكن هتخليه في عنبر غير اللي هو فيه؛ عشان ميشوفش حد من زمايله، هنتابع حالته يوميًا باستمرار، أنا حاسس إن الولد ده ضحية بيت ومجتمع طاغي.

– حاضر.

– أنا هشتغل عليه بنفسي، أنا عايزك يوميًا تعملي تقرير عنه وعن تصرفاته.

– أكيد طبعًا يا دكتور حاضر.

– اتفضل انتَ.

تابع الدكتور بعض الملفات، ثم بدأ ينتقل من قسم إلى آخر، وبعد ذلك أنهى زيارته و اتجه إلى منزله.

***

مصدر الصورة ويكيبيديا...

بعد مرور شهرين:

الاضطراب الموسمي، اللي عند حاتم بيبدأ يقل بالتدريج مع اختفاء الشتا والغيوم والأمطار، وبيرجع شخص طبيعي تمامًا، لأ وكمان بتكون مشاعره فياضة تعويضًا عن فترة التبلد اللي كان بيعيشها، مع اعتياده لزيارة الكافيه.

الحُب بيحصل بدون أي ترتيب أو مقدمات، يعني مينفعش تجهز

له، ولا تقول أنا هختار فلان الفلاني عشان أحبه، الحُب بيبان في عنيك بتحس إنك مخطوف للشخص اللي قدامك لمجرد ما تشوفه أو يدخل مكان انت فيه، بتبدأ إيدك ترتعش، ضربات قلبك بتكون مزعجة، بتحس إن قلبك هيطير من مكانه.

اللي بيحصل ده تأثير مشاعرك انت متقدرش تتحكم فيها، ومن الربكة والرهبة لو حد قالك ازيك، وقتها مبتعرفش ترد عليه، انت بتكون في حتة تانية خالص بعيدة عن التصنيف.

جلس حاتم في الرُكن المُعتاد له بالكافيه، ليحتسي قهوته المفضلة، ناظرًا للجرسون، بابتسامة وسلام حار تعويضًا عن ما سبق.

سُرعان ما قدَّم له مشروبه، ثم ذهب وأمسك بكتاب مدوّن على غلافه «ع المكشوف» ظنًا بأنَّ هذا الجرسون يتطلع للسياسة، هو معتقد بأنَّ الكتاب في هذا المجال، بعد دقائق، أشار له ليُحضر زجاجة مياه، فأتى على ترجل وتغمره الفرحة.

قال حاتم:

– إيه بتحب البلد أوي كده.

– هههه آه الحمد لله، بس ليه السؤال ده.

– أبدًا أصل شايف معاك كتاب على ما اعتقد بيتكلم عن السياسة.

– هو فعلًا بيتكلم عن السياسة، لكن ملهوش علاقة بسياسة البلد.

– ازاي يعني؟

– بيتكلم عن سياسة العلاقات والفُرص والصُدف اللي بترمينا في حياة بعض.

– لمين الكتاب ده؟

– لكاتب اسمه أحمد علي.

– معروف يعني؟

– معتقدش.

– انت عرفته ازاي!

– صُدفه، في الغالب كل الحاجات الحلوة بتكون صُدفه.

– ممكن أقرا فيه شوية؟

– طبعًا أعتقد هيفيدك.

رفع أحد حاجبيه وصمت، ثم أمسك بالكتاب ونظر إلى غلافه فوجد مدون على ظهره:

"فليس عدلًا أن ينام شخص وهُناك من يحبه ولا يُخبره".

سُرعان ما خطر بباله من يجلس هُنا من أجلها، عندما فتح الكتاب وقعت عينه على سؤال يطرحه الكاتب ويُجيب عنه، ألا وهو:

"هو الواحد لو حب مَرة ينفع يحب تاني؟».

تبسم وكأنه أمام كتالوج، يجيب عن كافة تساؤلاته.

بدأ يقرأ في تركيز تام، قطع تركيزه عطرها الذي ملأ المكان، مبتسمًا بصوت مسموع، كاسرًا كل قواعد الكلاسيكيات، وقائلًا بصوت مرتفع:

– يا عزيزتي، ليس عدلًا أن يجلس شخص وفي الكافيه من يحبه ولا يخبره، مبتسمًا حينها.

وكأنهما لم يسمعا شيء، جلسوا في مكانهم المُعتاد، لكنه أخذ القرار بأن يبوح بما في صدره.

ذهب إليهم في هدوء تام، مقتحمًا جلستهما، وضع الكتاب أمامها واستند بيداه على الطاولة منحنيًا بعض الشيء.

❁❁❁

جنون الرغبة (Mad desire)

قائلًا:

– أنا عايز أتجوزك!

وضعت يدها على فمها وهي في مرحلة تأرجح ما بين السعادة والغضب. يتدخل القدر وسرعان ما حضر الرجل الذي يأتي كل يوم ليسلب فرحته، لكن نظر إليهم فوجد طرف ثالث على غير العادة، فنزل من السيارة وذهب مسرعًا إليهم، ووضع يده على كِتفه، قائلًا بلهجة حادة:

– انت مين؟ و إيه اللي موقفك كده؟

سرعان ما استدار إليه، وقال بلطف ولين، شوف أنا معرفش أي حد فيكم، بس أنا عايز أتجوز البنت دي، فتحول غضب الرجل إلى ضحك هستيري، مشيرًا بيداه إلى الخروج، فخرجوا ونظر إليه قائلًا:

– دي طريقة حد يطلب بيها حد للجواز؟

– ما هو أحلى حاجة إني أكون بحب حد سر، ويتفاجئ بيا و أنا قاعد بشرب الشاي في الصالون.

– طب و انت كده مقولتش؟

– أنا قولت عشان مش عارف أوصل، انت مين.

– أنا بابا.

– أنا آسف والله، بعتذرلك ع الطريقة، لكن أنا معرفش غير إنى حبيتها، ومعتقدش إن فيه حاجة تمنعني من إني أعبر عن حبي ده.

– طيب ولو قولتلك، إنها متجوزة؟

– إيه؟!

– اه كانت متجوزة؟

– لكن...

– هي منُفصلة دلوقتي.

– ليه غلطت في إيه؟

– وليه ميكونش هو اللي غلط!

تغير وجه، وشعر بالخجل، ونكس رأسه في الأرض، ابتسم الرجل وخرج، لتقول لهُ إحداهما:

– ليه كل التأخير ده يا بابا؟

***

السبت 11 صباحًا:

ولأول مَرة يدخل كريم وأسرته المنزل بعد وفاة والده، ظلَّ ينتقل من مكان إلى آخر داخل المنزل، ويتذكر كيف كان يجلس والده، في أي مكان كان يستريح، يذهب إلى غرفته، يمسك ملابسه، يتحسس ريحها، ويطبطب على الأشياء التي كان يُمسك.

إنه الفقد في أبهى تكوينه، ظلَّ ينظر إلى صورته حتى امتلأت عيناه بالدموع و انفجر في البكاء، دخلت الأم فبدأت تجعله يستقيم بكلامها، رغم إنها من الداخل خراب وهش إلَّا إنها اختصرت كل شيء وضمته إليها ضمة الغائب.

وبدأت تحثه على أنه يتحمل المسؤولية، وظلت تمده بدعمها النفسي رغم كسرتها من الداخل وشتات أمرها.

نظر إليها وقال:

– وكيف بعد كل هذا الخراب، أراكي بهذا الثبات، كيف؟ كيف أراكي مبتسمة، وكل هذا الحُزن قد عَبر إليك.

فترد قائلة:

– إنه الإيمان.

بقولك إيه، أنا ملاحظة إن زميلتك لا بتتكلم ولا بتناقش ولا بتعترض على حاجة.

– آه، مروة يا ماما على ما اعتقد إنها بتعاني نفسيًا من حاجة، وده بسبب الأذى اللي حصل ليها من أهلها.

– طيب هنعمل إيه؟

– أنا الحقيقة مش هينفع أتخلى عنها دلوقتي أو على الأقل لازم نتابع حالتها مع دكتور الأول، ولا انتِ رأيك إيه؟

– بالرغم من إني معترضة على وجودها أساسًا، لكن فعلًا مش هينفع نقفل بابنا في وشها وهي متعرفش غيره.

– طيب خلاص أنا بكرة هسأل على دكتور يكون شاطر، و انتِ اللي هتوديها، بس انتِ حاولي تتعاملي معاها عادي جدًا.

– اه طبعًا واخدة بالي.

– طيب أنا هدخل أنام لأن بجد حاسس إن من سنة منمتش كويس.

❁❁❁

الندم (Regret)

بعد أسبوعين من غياب زوجته و ابنته، تبدَّل حاله، وبدأ يبحث عن عمل، وبدأ يلتزم في علاقته مع الله.

فيه Category من الناس مابتعرفش قيمة الناس اللي كانت في

حياتها غير لمَّا يبعدوا عنهم ويخسروهم للأبد، الأيام والناس بتثبت ليهم قد إيه الناس اللي كانت في حياتهم كانوا بمثابة الهدايا اللي كان لازم يبذلوا قصارى جهدهم عشان يحافظوا عليهم، لكن للأسف بيعرفوا ده متأخر، بعد فوات الأوان، فسلام الله عليهم حيثما كانوا ووجدوا.

بدأ عصام يمتهن أي مهنة، بعدما فقد مهنته الأساسية (كهربائي) بسبب سوء سمعته وأخلاقه حينها، ظلَّ يبحث عن عمل أيام، فلم يجد سوى أن يعمل خفيرًا على قطعة أرض يتم تجهيزها للبناء فقبل لأنه لم يجد مصدر دخل دونها، وظلَّ يُقيم داخل كشك من الأخشاب الممزقة ليلًا يأكله البرد، وصباحًا تأكله الشمس.

هل هذا عقاب، أم اختبار فقد النعمة؟!

ظلَّ خفيرًا لهذا الموقع حتى تمَّ إنشاؤه، وبعد ذلك أصبح خفيرًا على البرج السكني، الممتلئ بأصحاب النفوس والسلطات.

***

بداية الشهر

بدأت حياة هشام تستقر بالعمل، لكن كالعادة دائمًا الجديد يقع تحت طائلة التنمر حتى شعر بالفشل، و أنه لم يتحمل المسؤولية.

عند دخولك إلى قسم شرطة تجد أعلاهم رتبة أكثرهم تفهمًا وتواضعًا، تذهب إلى المستشفى تجد مديرها يبذل قصارى جهده لخدمتك وهكذا.

ألم تجد أفضلهم لياقة وخِبرة أكثرهم تقرب وخدمة لك، ولا تجد

مَن يخسف بك الأرض ويفقدك ثقتك سوى شخص لا يمكنه تقديم شيء.

دنى منه أحدًا وقال له:

– يومين تلاتة هتبقى تمام على فكرة وهتحس إنك شارب الشغلة دي، كلنا كنا في الأول كده، بس الجدع اللي يعدي فترة الملل الأُولى، بعدها هترتاح.

كلام الكابتن زود إصراره إنه يكمّل.

في نهاية اليوم بدأ يُعيد ترتيب الأجهزة، رغم إن مفيش جهاز اترتب صح، إلَّا إن صاحب الصالة كان مبسوط، محاولتك في إنك تعمل شغلك حتى لو غلط في حد ذاتها بتبسط، محاولتك في إنك تسعد حد بتخليه فعلًا مبسوط حتى لو فشلت.

اليوم التالي:

دخل هشام الصالة بنظرة غير نظرته المعتادة، تحس كده إنه بقى ابن المكان، اليوم التاني شاف ناس غير اللي شافها، وده خلى حُبه للمكان يزيد.

بعد أسبوعين:

– عاش يا كابتن.

أصبح في أقل من نصف ساعة يقوم بعملية التسجيل، ثم بعد ذلك محاولًا التمرين معهم.

بدأ يُحب المكان، لأنه استشعر فيه روح الصحاب التي ظلَّ

يبحث عنها ولم يجدها سوى في صديق واحد.

وأصبح محور تركيزه عند وجود كابتن جديد، يبذل قصارى جهده في جعله مُحبًا للمكان ومَن فيه.

تحولت حياته من الروتين للرياضة، من الخمول للحركة، أصبح شغوفًا بعمله لا يغيب عنه سوى يوم الجمعة، حتى ذلك اليوم بدأ في استثماره وأصبح يزور فيه صديقه، والطبيب.

هل المريض بعد ما يتعافى من الممكن أن يعود كما كان، أم أنَّ الأمر مستحيل؟

الحقيقة لا، مستحيل طالما الإنسان يُحاول.

زي ما الواحد بيحب وبيتكسر ويرجع يحب تاني وقلبه يتملي بحب الشخص ده، الدرجة اللي بتخليه ينسى إنه أساسًا كان في حياته حد قبل كده، ده التعويض العادل، البيت اللي بيكون فيه نسبة ميل وبيتهد ويرجع يتبني من تاني، بتتمحي تمامًا نسبة الميل دي.

الجرح اللي بيكون في إيدك، وبعد فترة بيخف وبالتدريج بتختفي معالِم جرحه، بيرجع كما كان، حاجات كتير بتتبدل، ربنا جعلها قابلة للتغيير بما فيه سلوك الإنسان، يعيد الإنسان من الضياع للرُشد، يعيده من الانحناء للاستقامة.

ذهب لزيارة الطبيب، فوجد عيادته مغلقة، في محاولة منه للوصل به، اتصل بالرقم الموجود الذي يحمل إعلانًا له، كان الغير طبيعي أن يتلقى اتصاله الطبيب بذاته، هذا الطبيب خرج عن كل شيء معتاد.

داربينهم حديثًا بضع دقائق، حتى قرر أن يذهب إلى منزله.

***

– هو ده كل اللي حصل يا خال (والدة مروة) أنا عارفة إني قصرت كتير في حقك، بس غصب عني، غصب عني.

– يا بنتي ربك مابينساش حد، ربنا وضع أكل النملة في قلب الصخرة، تفتكري هينسى عجوز حياته عِبارة عن شغل وقِبلة للصلاة؟!

لمعت عينها، وفاض دمعها، وتذكرت فقدها لابنتها، فطبطب عليها وضمَّها إليه، قائلًا:

– الواحد مننا بيفقد روحه، أول ما يسلم نفسه للزعل، جسمه بيبقى عامل زي الطفل الرضيع معندوش مناعة، أقل حاجة تأثر فيه.

– أنا قلبي واجعني أوي على مروة، وحشتني.

– كلنا فيه ناس وحشانا، بس مش كل اللي بيوحشونا بينفع نشوفهم.

بقولِك إيه بقى، ما تقومي تعمليلنا حاجة ناكلها، عشان أنا بحب أصحى الفَجر أصلي واشتغل بعدها في هدوء قبل زحمة الشوارع وصوت العربيات.

الوقت اللي تلاقي نفسك مرتاحة ومبسوطة فيه، استغليه، حتى لو الوقت ده عكس رغبات الناس، لأن كده كده محدش بيسلم من الناس.

– عندك حق.

***

– نزلت سلمى لكاترين.

– هو ده اللي 5 دقايق وهتلاقيني قُدامك.

– ما انتِ بنت وعارفة إن الـ 5 دقايق عند أي بنت ملهاش علاقة أساسًا بالساعة هههه.

– ها على فين يا ست سلمى، أنا جعانة، إحنا ناكل وبعدين نجيب آيس كريم، ونشوفلنا مكان نقعد فيه ننم على خلق الله.

– بس انتِ بتبعدي.

– اه ما أنا لمَّا بكون مكتئبة بحب فعلًا أبعد، بحب أعيش فترة نقاهة كده أرتب فيها الناس اللي في حياتي.

الوقت اللي بنبعد فيه عن الناس، هو أكتروقت بنقدرنعرف فيه قيمتنا عند كل واحد، الحاجات الحلوة سهل تتمثل بس المو اقف وحدها بتبين معادن الناس مش العِشرة ولا حاجة.

بقينا مؤخرًا بنكتفي بنفسنا أوي اللي هو عادي يعني لمَّا نقفل الفون والسوشيال ميديا، ومنخرجش، ونفضل فترات في البيت، تقريبًا بنعَود نفسنا على الاستغناء، عشان منتوجعش بعد كده من بُعد حد.

الحياة بتكون هادية أوي وبسيطة و انتَ راضي فيها عن نفسك، والأهم إنك بتعمل اللي يبسطك، مش اللي يبسط غيرك على حسابك،

وبتعرف مين هيلاحظ غيابك وييجي يسأل عنك، ومين بيمثل طول الوقت إنه جنبك وبيحبك، كله رايح والله، فالواحد يعيش حياته بالطريقة اللي تناسبه.

– طب والناس.

– والله اللي هيُسأل مكانك في القبر، نبقى نعمله حساب.

– عندك حق فعلًا، عارفة يا كاترين أنا أكتر حاجة اكتشفتها في حياتي توجع إيه؟

– أكيد الفراق؟

– لأ الفراق بيوجعك فترة ومع الوقت بننسى، ودي نعمة من ربنا علينا.

❁❁❁

فقر المشاعر (Poverty of feelings)

– اللي أوحش من الفُراق هو فقر المشاعر، اللي هو الوجع والكسرة بعينها، انتِ مجربتيش يعني إيه تفضلي تكتبي لحد ما إيدك توجعك، وبعدين تلاقي الرد كلمة، يعني إيه يفضل الواحد مننا يسأل ويهتم ويتابع ولو تعب فـ يوم ميلاقيش تليفون حتى يرن رنة.

يعني لمَّا تقولي لحد أنا زعلان و انتِ متعشمة إنك مش هتهوني عليه فيقولك براحتك وتهوني، ولَّا تفضلي تحكي وتشكي لحد ما قلبك يوجعك من كتر الكلام وفي الأخر يقولك معلش زيه زي الغريب، لأ أنا ملقتش أوحش ولا أصعب من فقر المشاعر ده، لإنه بيخلي الواحد

قاسي، معندوش رحمة باللي معاه، فقير المشاعر فقير في كل حاجة، كل حاجة حتى حنيته.

– بقولك إيه أنا عايزة انزل جيم، بدل الملل ده.

– تصدقي كنت هقولك من أول يوم على فكرة.

– خلاص هكلم مايكل عن الجم اللي بيروحه وهعرف عنوانه وهتصل بيكي لمَّا نروح.

– تدخلي سينما؟

– هههه ندخل سينما، هههههه.

***

– وأخيرًا وصل هشام لمنزل الدكتور، سلام وحُضن حار يشبه أحضان المطار.

قال الدكتور:

– اتفضل يا هشام.

دخل ونظره يجوب أرجاء المكان، لفت انتباهه صورة قديمة مدوّن أسفلها للخديوي إسماعيل، اتجه نحوها فوجد أيضًا صورة أخرى دُوّن بها، توفيق باشا، هو غير مُلم بذلك لكن سرعان ما سأل:

– ليه الصورتين دول بالتحديد.

بصوت عالي مبتسمًا قال:

– تعالى اشرب الشاي.

– لأ بجد ليه دول.

– ده انت مُصمم بقى، شوف يا إتش ما بين الصورة دي والصورة دي حاجات كتير أهمها المصلحة، يمكن أنا خليتهم هنا عشان ديمًا افتكر الموقف ده.

– أنا مش فاهم حاجة الحقيقة.

– الطبيعي، لو غير كده كنت هقلق عليك.

هبسطهالك، سنة 1879م انجلترا وفرنسا طمعوا في مصر، فلعبوا على المشاعر وعلى إنهم عايزين خدمة الشعب، وكان بيحكم الخديوي اسماعيل، بس كان عامل تغيير كبير في مصر وقتها، وده مكنش حلو بالنسبة لانجلترا وفرنسا، انت طبعًا عارف إن ديمًا في كل حاجة بيكون فيه كبش فداء، والخديوي كان الكبش وقتها.

وصلت الأطماع الاستعمارية لكل من انجلترا وفرنسا لمصر، وتحت ضغط كل من قنصلي انجلترا وفرنسا على السلطان العثماني عبد الحميد الثاني أصدر فرمانًا بعزل الخديوي اسماعيل في 26 يونيو 1879م، وبُعث إلى مصر عن طريق التلغراف وجاء نص الفرمان الذي ورد من الآستانة كالتالي:

«إلى سمو اسماعيل باشا خديوي مصر السابق، إنَّ الصعوبات الداخلية والخارجية التي وقعت أخيرًا في مصر قد بلغت من خطورة الشأن حدًا يؤدي استمراره إلى إثارة المشكلات والمخاطر لمصر والسلطنة العثمانية.

ولمَّا كان الباب العالي يرى أنَّ توفير أسباب الراحة والطمأنينة

للأهالي من أهم واجباته، ومما يقضيه الفرمان الذي خولكم حكم مصر، ولمَّا تبين أنَّ بقاءكم في الحكم يُزيد المصاعب الحالية، فقد أصدر جلالة السلطان إرادته بناءً على قرار مجلس الوزراء بإسناد منصب الخديوية المصرية إلى صاحب السمو الأمير توفيق باشا.

وأرسلت الإدارة السنية في تلغراف آخر إلى سموّه بتنصيبه خديويًا لمصر، وعليه أدعو سموكم عند تسلمكم هذه الرسالة إلى التخلي عن حكم مصر احترامًا للفرمان السلطاني».

– ده انت طلعت دكتور تاريخ بقى مش نفسي!

– لأ ده ملوش علاقة، تاريخ البلد يا هشام، انت مش بتحب البلد ولَّا إيه؟

– إحنا نقدر نحب غيرها.

ظلّوا في نقاش ومِزاح حتى منتصف الليل وكلًا منهم يسرد ماضيه بلطف وتفاخر، لم يُفرقهم إلَّا النوم.

وفي اليوم التالي ذهب الدكتور إلى عيادته.

***

استيقظ كريم بعد نوم عميق سائلًا:

– شوفتي دكتور لمروة يا ماما؟

– اه سألت وعرفت إن فيه دكتور شاطر أوي، عيادته في وسط البد بشارع شمبليون تحديدًا، اسمه سامي فخر الدين.

– تمام.

قام واستعد للخروج و أبلغ مروة هي الأُخرى، وخرجا سويًا، وفي مخيلتها بأن هذا الأمر عاديًا ودون مقصدًا لشيء محدد.

الواحد مننا لمَّا بيتوجع وبيفضل ساكت فترة طويلة، بيحس إن قلبه نشف ومات.

خرجوا في تمام الحادية عشر صباحًا، منتقلين من مكان إلى آخر.

– امسك إيدي يا كريم.

❁❁❁

الأمان المطلق (Absolute security)

حَضن إيدها كأنه حاضن أُكرة باب، وقالت:

– انت عارف أنا حاسة جدًا بالأمان.

– ده احنا في قلب الشارع والعربيات من كل جانب فين الأمان؟!

– الأمان مش مكان مُحاط بسور وناس كتير حواليك، الأمان بالنسبة لأي بنت هي إنها تكون مطمنة، وقلبها مش حاسس بخوف وقلق.

بقولك إيه، أنا عايزة أقعد على قهوة بلدي.

– انتِ أكيد اتجننتي بجد!

– تقدر تقول إني قررت اعمل الحاجات اللي بحبها حتى لو الناس

مش بتحبها.

– طيب ولو أنا مش بحبها؟

– لأ انتَ بتحب كل حاجة بحبها، من غير ما تاخد بالك.

– أنا أول مَرة اسمع منك كلمة حلوة!

– أنا قلت عشان اطمنت، وده مفتاح قلب أي بنت. هو احنا رايحين فين؟

– أبدًا يا ستي هنقعد على قهوة بلدي في أول العمر.

– إيه ياض الخِفة دي، اسمها آخر العمر.

– دي أقل حاجة عندي.

بخبطة بسيطة على كتفه قائلة:

– امشي طيب وبص قدامك.

– هاتي إيدك عشان أعديكي.

– لأ خد بالك من نفسك انتَ.

– طب ما انتِ نفسي.

– ثم اتجها إلى شارع شمبليون بوسط البلد، حتى وصلا إلى عيادة الدكتور سامي، نظر إليها قائلًا:

– أنا عارف ومتأكد إنك تمام، وأنا جي عشان اطمن عليكي مش أكتر، هنظبط كل الحاجات الوحشة اللي مريتي بيها، وأنا كمان

حاسس إن نفسيتي مش تمام بعد موت بابا.

فابتسمت هي.

فقال: حلوة أسنان الأرنب دي.

– اتلم ياض.

دخلوا سويًا و أيديهم تُعانق بعضها، تلك التفاصيل تُشكل فرقًا واضحًا في إقامة العلاقات، ولكننا نشعر بالخجل دومًا من الناس، تقبيل اليد له تأثير، تقبيل الجبين لهُ رونق، أن تُهادي أحدًا بلا سبب لفتة عظيمة، ولكننا أيضًا نخجل من الناس، فتتحول العلاقة إلى روتين.

رحب بهم الطبيب قائلًا:

– اتفضلوا، مين فيكم كويس؟

كريم بصوت داخلي:

– ده باين عليه دكتور نكتة فعلًا

– طبعًا هي يا دكتور الأحلى.

الطبيب: ماشي ياسي روميو.

بعد نصف ساعة من حوار دسم ومتبادل بين كريم ومروة والطبيب، انتهت الجلسة.

وقف كريم، ووقفت مروة، وظلَّ كريم متأخر بعض الشيء قائلًا:

– اتفضلي يا ست الكل، فاردًا ذراعه أمامها منحنيًا بعض

الشيء، مما أثار انتباه الطبيب.

في الغالب لا يُرى هذا المنظر الكلاسيكي داخل العيادات، استأذن كريم أن يبقَ بضع ثو اني، فطلب منها أن تذهب قائلًا:

– طيب اتفضلي انتظريني في الخارج و أنا هشوف الدكتورمحتاج إيه.

خرج من خلف مكتبه ووضع يده اليُمنى على كتفه، وذهب به إلى شرفة المكتب، قائلًا:

– انتَ مش وحدك، شايف الناس قد إيه في الشارع، الناس دي جوه كل واحد فيهم ألف حكاية من فرح ووجع، الحكمة في اللي يتصالح مع حكايته ويعيش بيها بكل رضا، و أنا بقولك الكلام ده عشان شايف في عنيك حُب، باين عليك في لبسك وطريقة كلامك وتعبيرك، الحُب بيبان على صاحبه حتى لو مبيعرفش يعبرعنه بالكلام، و انت حبيت.

مروة محتاجة تتابع معايا فترة، لأنها عندها أعراض اكتئاب سودوي، وكويس إنك جيت في توقيت زي ده، هي محتاجة دعم نفسي مش علاج عضوي، هيبلغوك بره بمعادكم.

– ثم خرج كريم في هدوء تام، و اتزان دون أن تلاحظ مروة أثر شيء على ملامحه.

***

خرج الأب من الكافيه معتذرًا عن تأخره قائلًا:

– أنا بس كنت محتاج أتأكد من حاجة.

حاجة إيه يا بابا، ده أكيد مجنون هو فيه حد ممكن يعمل اللي عمله ده.

بكل حيادية وتصالح مع النفس، قائلًا:

– اه فيه يا فريدة.

رفعت حاجبها: ازاي بس يا بابا.

– الحُب ملوش علاقة بقوانين، ميعرفش الوقت والأماكن، دي حاجة بنكتشفها في لحظتها، لكن فيه شعرة بسيطة أوي بتفصل بين الانبهاروبين الحُب.

واللي كان عند الولد ده انبهار، على الأقل في اللحظة دي جايز يتحول لحاجة أصدق فيما بعد.

– هو يا بابا مش المفروض إن الحُب فيه انبهار، يعني الحُب أساسًا انبهار.

– لأ خالص يا فريدة.

– طب إيه الفرق ما بين الحُب والانبهار؟

– الانبهار، إنه حد يعجبه شكل حد أو طريقة كلامه، لبسه، ومكانته الاجتماعية، ولمجرد ما يقرّب منه ويعرف تفاصيل حياته وطباعه، بالتدريج بينسحب، لإنه كان فاكر إن حياته وردي مفيهاش مشاكل ولا تحديات، عجبه الشكل مش الروح.

عكس الحُب بيظهر وقت الشدة والمعارك، الحُب بيحركنا من جوه، بيخلينا نقبل الشخص مهما كانت المعطيات صعبة، حلو ولَّا

وحش، الحُب بكيدج لازم تاخده كله على بعضه، وده اللي بيثبت مين حَب ومين كان منهر بالشكل من بره.

الحُب مو اقف بتسيب علامات في قلوبنا، بتخلينا منقدرش نستغنى ولا نبعد ولا نسيب الشخص ده، لأن مفيش حاجة تبين معدن الواحد وحقيقة حُبه غير المحنة، والمِحن دي هي اللي بتفلتر في حياتنا الناس، بتجرد أي قناع مداري باسم الحُب.

– عارف يا بابا أنا نفسي ف إيه؟

– إيه يا فريدة؟

– نفسي اتجوز حد زيك، في طباعك وشكلك وحنيتك ولين قلبك وتفهمك وطريقة تفكيرك، عايزة حد يشوفني بقلبك وعينك.

– الشخص ده فعلًا موجود يا فريدة، لكن بطريقة مختلفة، لأن حُب الأب لبنته غير حُب الحبيب لحبيته، فمتحوليش تقارني ده بده لإن المعادلة هتكون غلط وغير عادلة.

– طب أنا عايزة آيس كريم أنا وشروق.

– شروق نايمة بتحلم دلوقتي، هههه.

– طيب أنا عندي ليكي حاجة أحلى من الآيس كريم.

– بجد إيه ها ها؟!

– هنسيب يا ست المنطقة اللي كل يوم تشتكي منها.

بصوت مجنون يشبه صوت مدرجات ريال مدريد، اووووووه.

عمو سامي كلمني على شقة في مكان كويس، بكرة هروح أشوفها إن شاء الله.

– هاجي معاك يا بابا.

– طيب وهو أنا من امتى باخد قرار لوحدي يا ست البنات، أنا بس أشوفها الأول، و أكيد هتيجي معايا انتِ وشروق.

– لأ ده انتَ تاخد بوسة بقى.

وتعالت الضحكات، حتى استيقظت شروق من صدمة مطب بالسيارة.

***

خرج حاتم من الكافيه، وهو في حالة غير متزنة، يشعر بكآبة الجو، سرعان ما انتهت الفرحة، ودُمرت الأماني، وشعر بالوِحدة.

أحيانًا نخشى أن نبوح بحبنا خوفًا بأن نفقدهم للأبد حينها.

أسوأ حاجة ممكن الواحد يُقع فيها، هو إنه يعيّش نفسه على أمل حد تاني، مرحلة المنتصف في أي شيء مؤذية.

❁❁❁

تذبذب المشاعر (Vibrate feelings)

ذبذبة المشاعر، تشبه لمبة بتعمل صوت برق عمّالة تنور وتطفي، بتسببلك توتر، وكأن انفجر في المكان قُنبلة، هي أي حاجة غير واضحة بيكون تأثيرها كده، وخصوصًا لو متعلقة بمشاعر حد،

طيب إيه الحل؟

هو على مدار سنين مش بيقدر يحتفظ بحد، ولا كمان قادر يكون اجتماعي للدرجة اللي تخليه يقدر يتعايش بشكل كويس إلى حدٍ ما مع الناس، فبدأ يهرب من الو اقع بالنوم.

***

– لو سمحت يا عم عصام، كنت محتاج بس كهربائي يرَكب كام حاجة في الشقة.

– أنا يا بيه اعملك اللي انتَ عايزه.

– دي كهربة يا عصام مفيهاش هزار.

– اه واخد بالي أنا بفهم أوي فيها.

– طيب مفيش مشكلة انت أولى من غيرك.

ذهب معه، وقام بتغيير بعض الأسلاك الخاصة بالنجفة ولمباتها، على أكمل وجه.

ليشكره قائلًا:

– تسلم إيدك والله يا عم عصام، مكنتش متخيل إنك شاطر كده.

– العفو يا بيه، وقت ما تحتاج حضرتك حاجة اديني خبر بس.

***

– تعرفي يا كاترين أنا من زمان مفرحتش أوي كده.

– لأ ده الفيلم كان عجبك بس، هههه.

– كل الحاجات واحدة، اللي بيخليها حلوة أو عادية في نظرنا، الناس اللي بتشاركنا فيها، فيه حد خيب ظنك قبل كده؟

– آه فيه.

– وعملتي إيه؟

– سامحته.

– ازاي.

– عادي.

– مش فاهمة حاجة!

– خليته عادي زي باقي الناس، رجعته لنقطة البداية، خليته شخص زيه زي أي حد غريب، ملهوش عندي أي رصيد، فاهمة.

بعد يوم كان مليء بالأماكن والثرثرة والقرارات، عادت كل منهما إلى منزلها، لتسير عقارب الساعة في اتجاهها، ويحل يومًا جديدًا بكل ما فيه.

***

استيقظ المُسن المُبدع الرسام لصلاة الفَجر، ليبدأ طقسه المعتاد، مهتم هو بسماع محمود درويش.

عقله يتزيّن بالكلمات، فيُزيّن ما يرسمه بالحركات، ليس غريبًا على مُسن أن يمتهن مهنة الرسم، فالرسام يكن أكثر الناس حساسية

وملاحظة للتفاصيل، لكن أيضًا هو أكثرهم تخطي لمشكلات الحياة بشكل عام.

انظر كيف يخلق الرسام من العدم دمعة على ورقة بيضاء، تستطيع تحسها وتستشعرها بأنها أشبه للحقيقة، هؤلاء من يُحركون آليات الحياة والاستمرارية بداخلنا، ذلك مَن يستطيع أن يُريك كل ملامحك التي أحيانًا تُخفيها عنك المرآة، نحن جميعًا مدينون لهؤلاء، فهم يتعمدون إظهار أجمل ما فينا.

استيقظت أيضًا والدة مروة، وهى تتحرك في المنزل بهدوء خوفًا من أن تكن مصدر ضجيج، إذا بها تجد، كوب الشاي على كرسي خشبي متآكل من الأعلى قديم، وجرامافون يخرج منه صوتًا هي لا تعرفه، لكنها استمعت للنهاية.

وتلك الغرفة التي زينتها بيوت العنكبوت، تُشبه القبورفي هدوئها، وتُشعرك بقبح الدنيا وما فيها.

كان ذلك الصوت المعتاد له ودرويش يُلقي إحدى قصائده، بل الأهم على الإطلاق قائلًا:

مقهى و أنتَ مع الجريدة جالسٌ لا

لسْتَ وحدَك نِصْفُ كأسك فارغٌ

والشمسُ تملأ نصفها الثاني

ومِن خلف الزجاج ترى المشاة المسرعين

ولا تُرَى إحدى صفات الغيب تلك

ترى ولكن لا تُرَى.

في الغالب مَن يهرب من شيء دائمًا يجمعه القدر به في كُل مكان.

تلك الكلمات جعلت قلب الأم يدب وتِحن للماضي وما فيه، عيناها تلمع بشغف اللُقا، يدها ترتعش كعجوز مُسن في شتاء قارس البرودة، يشبه سقيع تيتانك الذي أودى بحياة أكثر من ألف وأربع مائة وتسعون قتيل، ها هي تلك، كم مِنَّا يحتاج إلى الحُضن والسؤال والسلام، مَن مِنَّا لم يذق الفقد؟

هل الموت ظالم؟ أم إنَّ الحياة أشد ظلمًا علينا بما فيها؟ أيهما أرحم؟

ففي الأُولى رحمه الله، وفي الثانية اختبار الله، وما بينهما ما يسمى بالحياة.

دخلت الغرفة وهي مبتسمة متخففة ثيابها، وكأنها لم تبلغ التاسعة عشر من العُمر، حقًا يُعيد الله ويُنير ما أطفأته الأيام والناس.

نظر إليها في تأمل وقدسية تشبه قراءة ورد، قائلًا:

– صحيتي بدري ليه يا بنتي.

– أنا هتعود زيك يا خال، المهم أجهزلك فطار دلوقتي؟

– طيب، اديني بس نُص ساعة اخلص حاجة في رسمة البنت دي.

– الله ضحكتها حلوة أوي.

– ضحك الصور ملهوش علاقة بالحقيقة، فيه حاجات مُرة الناس بتهرب منها بابتسامة مُزيفة.

***

(أحد أهم مستشفيات مصر للصحة النفسية).

دخل الطبيب، وفي عيناه مصير ذلك المريض، يتأمل المباني والأشجار ودورات المياه، وأماكن الإيواء، يتأمل شكل الطعام والملابس والأرض، هو ينظر وكأنها نظرة مودع مُسافر بأرض المطار، يملئ قلبه حديث داخلي:

– هل كل الذين وصفهم السادة بالتنمر، يستحقون العيش خلف الجدران؟ هل كل الذين يُمثلون الدِين يدخلون الجنة؟ وكل المقيمين في المساجد والمعابد والأضرحة بقلبهم يثقل الإيمان، يوم القيامة سننبهر.

هل كل هؤلاء المرضى، يتصفون بالجنون؟!

مبتسمًا قائلًا ذلك المَثل المصري القديم:

«إن كان في الحبس مظاليم، يبقى في المستشفيات كويسين».

ثم اتجه إلى مكتبه، ليستدعي الطبيب المكلَّف بحالة المريض من الزيارة السابقة.

– ها إيه الأخبار معاك؟

(فلاش باك)

– والله يا دكتور أنا مستغرب جدًا، ده من أدائه أنا حسيت إنه شخص طبيعي وهادي لمَّا حملته المسئولية وفهم إنه ملتزم بالمكان ده، غبت عنه فترة حوالي ساعتين تقريبًا ورجعت لاقيته بيقولي أنا عايز أروح الحمام من بدري!

بقوله طيب مروحتش ليه؟ قالي مكنش ينفع اسيب مكاني!

ذهب إلى الـ WC ثم عاد، وعند سؤاله عن تاريخ ميلاده قال:

– أنا مواليد 26 ديسمبر 1995م.

ثم سألته ماذا يعني ديسمبر؟

قال:

– ده نهاية وبداية كل عام!

بصراحة أنا حسيت إن الحوار معاه ممتع، وبسأله، عندك اخوات مردش.

– طيب نفسك في إيه يا نور؟

– إني أشوف النور.

– ما احنا في النهار أهو.

– لأ نور الحياة مش الجو.

– يعني إيه؟

– النور الحقيقي هو إنك تحس بوجودك وقيمتك وسط الناس، أوقات كتير الناس بتجبرنا نتخلى عن قيمتنا عشان يحسوا هُمَ

بقيمتهم، تقدر تقول ناس ناقصة بنت ستين كلاب!

– هههههه بس يا عم بلاش شتيمة هتودينا في داهية.

– شوف انسى الكلام اللي قولته، و انسى كل حاجة سمعتها.

– انت مين؟

بصراحة استغربت وبان ده عليا.

والصدمة بقى يا دكتور.

قالي: شوف أهو لمجرد رد فعل غير متوقع، انت وصفتني زي باقي الناس دي، ده كل اللي حصل.

***

قال كريم لـ مروة ممكن تيجي تراجعي معايا شوية، الامتحانات قربت، و أنا من فترة طويلة غايب.

– هو انتِ مش هتدخلي الامتحان؟

– لأ مش هروح المدرسة خالص.

– ليه كده بس؟!

– ممكن لو سمحت نقفل الكلام في الموضوع ده.

– حاضر، ممكن بقى حضرتك تراجعيلي أنا؟

– أفكر.

– إيه هههههه.

المدهش في الموضوع إن كريم مفتحش أي موضوع معاها عن الماضي، يا ترى ده دليل قاطع على احترام حرية ومشاعر الغير، ولَّا خوف بإنه يكون مصدر إزعاج ليها، وخصوصًا إنها متعرفش مكان غير بيتهم، جايز!

الحقيقة الموضوع حساس جدًا.

من وقت للتاني كل واحد فينا بيمر بفترة تقلب مودي، بتكون ناتجة عن مشاكل وكبت أُسري بحت، وقتها الواحد بيكون محتاج الناس اللي بتتعامل معاه بشكل يومي تمنحه المساحة الكافية من الخصوصية، واحترام الذات.

بنكون محتاجين الناس تفهم سكوتنا، ميغصبوش علينا نحكي ونطلع الوجع اللي جوانا، لأننا لو كنا حاسين بالأمان كنا والله فضفضنا وارتحنا.

لكن في الغالب مش بنلاقي غير الناس اللي بتقتحم حياتنا، وبيضغطوا علينا عشان نحكي بدافع الفضول مش التهوين على النفس، ومش مهم عندهم هنكون تُعساء ولَّا لأ، مش مهم شعورنا ولَّا أذانا النفسي، مش مهم غير رغباتهم وفضولهم وبس، الناس دي مش لازم نسمع ليهم ولا بالضرورة نلبي طلباتهم، كفاية تهاون وعك في حق نفسنا لحد كده.

حالة نور أكيد مش الوحيدة هنا فيه غيرها كتير، أنا متأكد إن الأثر بيكون سلبي هنا أكتر من المعاملة، من الجو نفسه، حتى من طريقة العلاج، اللي زي نور محتاج يتحط في بيئة وناس تتعامل معاه كأنه شخص صالح للحياة، إنما يتحط في الدايرة دي لا لا صعب.

أسهل حاجة عند الناس إنهم يتهموا غيرهم باللي فيهم، الناس بتدخل المستشفى من باب الحماية، عشان نحمي الناس منهم ونحميهم من أنفسهم.

فلما يحصل العكس يبقى فيه كارثة هنا، أي إنسان بشكل عام مش بس المريض النفسي محتاج الحماية من الاستغلال النفسي والجنسي والتفرقة، ومن الإيذاء الجسدي والمعاملة المهينة، ودي أبسط حقوق أي نفس بشرية.

– أنا هقدم طلب إني أخرَج نور وهتوَلى رعايته على مسئوليتي الشخصية.

– بس ده ممكن يسببلك مشكلة يا دكتور.

– فين المشكلة هنا، إني أؤمن بسلامة شخص دي مشكلة!

– لأ مقصدش، المشكلة إنه ممكن يهرب مثلًا، أو يعمل حاجة غلط.

– لا لا، المشكلة الحقيقة هو إننا نخلي الخوف يتملك فينا كده لدرجة إننا نحرم غيرنا من التجربة، مش صح إننا نشوف المشهد بعين المُخرِج بس، أحيانًا بيكون للمُشاهد رأي تاني، نور محتاج يحس إنه إنسان طبيعي لأنه لمَّا اتحط في مكان الشخص الطبيعي انت أول واحد انبهر من طريقته.

المشكلة الحقيقة إن فيه ناس كتير بتخاف تقول إنها غلط وتعترف بده، ويفضلوا يكابروا ويقولوا اللي مش عاجبه يشرب من البحر، وللأسف محدش بيشرب منه غيرهم.

أنا هكتبلك الطلب و انتَ قدمهُ.

***

بُرج ساساتيون

– مساء الخير، أنا أخو الدكتور سامي، جي أشوف الشقة الموجودة هنا.

– اه يا بيه اتفضل، الدكتور سامي ده راجل ذوق وأخلاق أوي.

– انت شوفته؟

– الحقيقة لأ يا بيه هههههه.

– الشقة في الدور الكام؟

– في الرابع بس هتعجبك أوي.

– دخلتها؟

– لأ هدخلها هههههه.

– انت بتهزر كتير بقى.

– والله يا بيه عشان اليوم بس يفوت.

سرعان ما رأى الشقة وحينها على الفور متصلًا قائلًا:

– الشقة تحفة يا سامي.

– يا ابني أنا طول عمري كلاسيكي، زي ما كانت بتقول ماما الله يرحمها.

– طيب تمام يا عم العندليب، هفوت عليك دلوقتي.

– إيه إيه أنا في العيادة، هنرتب يوم ونتقابل، وبالمَرة تجيب فريدة وشروق، ونبقى نكتب العَقد كمان.

– لأ مش هينفع أكتب دلوقتي.

– ليه؟ مش قلت عجبتك.

– لأ ماهي لازم تعجب فريدة هي كمان.

– انتَ راجل البيت.

– دي اسمها حياة مفيهاش راجل وست.

– انت غريب أوي والله.

– هو أنا بعمل كل ده ليه، عشانهم، أنا عايز أحس إني بشاركهم في كل حاجة.

هي صحيح بنتي، بس أنا بشوفها بعين أمي رحمة الله عليها، عارف يا سامي البنت دي فيها كمية حَنين معوضني عن كل حُزن مريت بيه في يوم من الأيام، فعلًا والله اللي معندوش بنت ميعرفش يعني إيه وِد وحُب.

– والله لو بتكلم حد غريب ليفتكر إنها مراتك.

– هههه، ربنا أخد مني القمر و أنا رضيت بحُكمه، فعوضني بنجمتين من السما، فريدة وشروق، و أنا مش محتاج غير إني كل يوم أشوف خدهم مليان فرحة وعنهم بتلمع رضا.

– حلوة علاقتك ببناتك لمَّا الأب يكون حنين ومتفاهم مع البنت، بيكسبها من الدنيا، وبيكون ضامن إن محدش هيوصل لقلبها غير بطريقته وعلمه.

– انت عارف إنك دلوقتي أخدت نص وقت جلسة؟

– بقيت مادي يا سامي هههههه.

– أقولك أنا هروح أجيب فريدة وشروق يشوفوها دلوقتي ونروّح، وهنتظر اتصالك نتقابل وقت ما تقدر.

– تمام.

***

الساعة الحادية عشر ليلًا.

استيقظ حاتم من النوم وهو في حالة من الضجر المستمر وعدم الرضا، وشعور الفزع اللا متناهي، متسائلًا لماذا يميل القلب إلى كل ما هو غير مناسب وملائم؟

يشعر الآن وكأنه في خلاف أبدي مع كل شيء أَحبه، مع كل شيء يرغب فيه، قرر أن يخرج عندما قرر الجميع العودة، وها هي تلك الطقوس التي يبدأ بها الاكتئاب.

رفض أن يقود سيارته، وظلَّ يسير في الطرقات، يتأمل المقاهي والمحلات، يتأمل أوجه الناس مخاطبًا نفسه قائلًا:

«أنا في أَمس الحاجة للعُزلة عن الناس»، وظلَّ يسير بلا هدف، ودون تفكير، حتى وجد نفسه أمام Night Club.

كانت التجربة الأُولى له، ثم دخل وحيدًا –وهو الأمر الذي يشبه المستحيل في تلك الأماكن– في لحظة انشغل فيها الجارد دون ترتيب مُسبق.

إذ يجد فتاة في مقتبل العُمر، وهي لا ترتدي سوى بعض قطع القماش الشفاف على الجسم، تاركة شعرها خلفها، لحظة تلو الأُخرى تُلوح بيدها إلى كل من يُلوح لها، ظلَّ جالسًا وكأنه المُلفِت في المكان بوحدته.

ما أسوأ أن تكون وسط الزحام وتشعر بأنك وحيد.

في لمح البصر مالت إليه، وهو لا يشعر بنفسه مبتسمًا ابتسامة بلهاء، وظلَّتْ تضع له كأسًا، منتقلة من ركنٍ إلى آخر، هؤلاء مَن بالداخل، هُم في عالَم موازى من الحقيقة، هل هُم مغيبون، أم هم أشد الناس حُزنًا فبطريقتهم يهربون؟!

في الخلفية تُغني إحدى الأغنيات:

"دايره تلف تصب البيره وعلى ترابيزه بترقع ضحكه، وتبصلها تقول دي أميرة بس الجوع والفقر دابحها".

ظلَّ جالسًا وهو يفقد الوعي شيئًا فشيء، حتى بدأ في الصراخ، مما اضطره للخروج مُجبرًا على ذلك بعدما قذفه جارد المكان ببعض قطع الثلج الصغيرة.

عاد إلى المنزل، مستلقيًا بملابسه بحذائه دون أن يشعر بشيء، ثم استيقظ في الصباح ليجد نفسه في قمة الفوضى، يمسك بهاتفه يتصفحه، ليقع بصره على، خبر انتحار شاب بمنطقة حدائق القبة

بعد إصابته بنوبة اكتئاب، أقبل على إثرها بالانتحار!

سُرعان ما اندهش لذلك رغم أنه لا يعرف من هذا، لكن دائمًا يشعر الإنسان بكل شيء داخلي يمر به، ليجده مطاردًا له في كل مكان، هل هذا شيء متعلق بالقدر، أم أنَّ هذه نزعة حِسية من طبيعة البشر، هل كثرة الخوف ينتج بعده قوة، أم أنَّ الخوف يؤدي للموت أحيانًا.

رغم شعوره بالمعاناة النفسية، إلَّا أنه في حالة مفرطة من الخجل بأن يذهب إلى طبيب نفسي بسبب نظرة المجتمع لذلك.

هل سيذهب؟ أم يترك المرض يجوب بداخله وهو لا يُدرك مدى تأثيره؟ وإلى أي طريق به يذهب؟

***

بعد مرور4 أيام، ذهبت سلمى للجم.

إنَّ الخجل والكسوف من فطرة البشر عند بداية كل تجربه، لكن في الغالب لا تطل البدايات.

كانت من هؤلاء الناس الذين يخشون القرب بعد خروجها من علاقة فاشلة مصطحبه باضطراب وتبدد في الشخصية، فاقدة ثقتها في الجميع.

ليس من الضروري أنَّ كل إنسان يفشل في علاقة ما، يُصبح مُصاب بتبدد الشخصية، لا يوجد تقنين لذلك، فالعلاقات لا توَحد.

ينتج هذا المرض عن مدى تأثير نوع العلاقة، تلك المشاعر لا

يوجد لها مقياس ولا درجة.

مع بداية دخولها، بدأت في إجراء التسجيل، كان أول شخص تقع عينها عليه، هشام، ذاك القدرساق قطبي المغناطيس على وجه التنافر بينهما.

المشكلة اللي بتواجهنا بعد تجربة فاشلة وغير موفقة هو إننا بنُصاب بشعور عدم الأمان، دايمًا عندنا خوف مفرط من التجربة السابقة، بناءً عليه بنرفض قرب أي حد وبنبعد، فيشوفنا الطرف التاني إننا مكتئبين ومعقدين؛ لأنه ميعرفش ولا عاش اللي مرينا بيه وعشناه.

وللأسف الشديد بيدفع الضريبة الشخص الوحيد اللي يمكن كان صادق في حُبه، يحاول يقرب فيلاقي الطرف التاني بيبعد، فيحس بعدم القبول ويمشي مكسور الخاطر.

قالت سلمى:

– شوف أنا أول مَرة أدخل جم أساسًا، فمش عارفة أي حاجة.

– مفيش مشكلة الموضوع بسيط، إحنا بس هنسجل البيانات، وهنحدد الأيام وهتبدئي واحدة واحدة الموضوع هيبقى سهل.

برفعة حاجب كده، تمام!

بعد مُضي ساعة من التدريب اتجهت إليه لتخبره بأنها أُرهِقت.

ليرد قائلًا:

– اه هو بس عشان أول يوم وكده، بس عاش، هتحسي بوجع

بسيط كده في بعض عضلات جسمك، بس ده مش معناه انك تريحي، معادنا بعد بكرة يا كابتن.

***

عاد كريم من المدرسة متزن المزاج، بعدما خرج موفقًا من الامتحان، ليجد مروة أمامه قائلة:

– ها عملت إيه في الامتحان؟ حليت كويس؟

بكل لطف ولين مبتسمًا في وجهها، أنا كويس على فكرة بسؤالك.

حينها تركته وذهبت.

– عملت إيه يا كيمو؟

– كويس والله يا ماما كله تمام.

– يا رب ديمًا يا حبيبي.

معاد الدكتور النهاردة على فكرة بتاع مروة.

– اه ما أنا فاكر مش بنسى.

مبتسمة مازحة: ماشي يا عم ودي برضو حاجة تتنسي، ما هي من ريحة الحبايب.

بصوت يشبه أصوات الأنميشن:

– مروة...مروة.

– إيه يا رخم!

– الواحد مننا لمَّا بيحب، بيحب يسمع من حبيبه كلام غريب، يعني لو البنت اللي مرتبط بيها قالت ياض، بتحسي الكلام ليه رونق تاني خالص غير معناها.

التفاصيل الصُغيرة، لمَّا بتحصل من حد بتحبه بتفرق وبتضاعف جمالها مهما كانت بسيطة بالنسباله.

مبتسمًا قائلًا:

– أحلى رخم دي ولَّا إيه.

– خِفة، بصوت داخلي مرتفع.

– هتبقي نكدية موت.

– سمعتك على فكرة.

– بقولك طيب هنروح للدكتور النهاردة عشان أنا حاسس إني محتاج أفضفض معاه.

– طب قول انك عايز تروح وبتجيبها فيا.

– أنا و انتِ واحد.

– لا طبعًا أنا مروة و انتَ كريم.

اليوم التالي، السادسة مساءً.

خرجوا شابكي أيديهم بعد ساعة ونصف من الحوار مع الطبيب، وكل منهم يشعر بالبهجة وكأنهما يخرجان من ملهى، قائلًا كريم:

– إيه رأيك نتمشى شوية.

– بص هو أنا عايزة، بس مش هينفع!

– أنا عايز أقولك كلام كتير جو ايا، و اتمنى إنك تفهميني صح.

– طبعًا اتفضل.

– أهو بعد اتفضل دي أنا اتقفلت!

– خلاص إرغي ياض.

– ايون كده.

– أوقات بكون عايز أقولك كلام كتير جو ايا بس خايف!

– من إيه؟

– من البُعد، بخاف تفهميني غلط وتمشي وتختفي، وده في حد ذاته هيموتني، أنا عايزك تعرفي حاجة واحدة، انتِ قاعدة في بيتك، مع مامتك واختك، يعني حتى لو حصل وزعلتك بلاش تربطي وجودك بيا.

هو أنا لو بُحت بمشاعري تجاهك، وقولتلك كده بدون أي مقدمات إني بحبك.

– عارفة ومتأكدة يا ابني باين عليك.

نظر إليها في دهشة، تشبه في رد فعلها السجدة من الفرحة.

– يلا بقى خلينا نروح، بصوت عالي ضرب بيده في الهواء قائلًا: أووو.

مبتسمة: مجنون.

جنون الحُب من أعظم اللحظات على الإطلاق، اللحظة اللي بتعمل فيها حاجة عكس شخصيتك تمامًا، بدافع الحُب عُمرها ما بتتنسي حتى لو متوثقتش، بتحس إن جواك هوا، أخف من الريش، قابل للطيران، نظرة عينك للناس والمجتمع وقتها بتكون حُب.

إنك تقدر تعبر عن اللي جواك سواء بالكلام أو الأفعال دي نعمة عظيمة في حد ذاتها، لأن فيه ناس مبيعرفوش يقولوا ولا يشرحوا اللي جواهم وحاسين بيه، غير بالعياط.

***

– بقولك إيه يا عم عصام، كنت عرفت إنك كويس في الكهربة.

– اه أمرني يا بيه.

– ربنا يباركلك، كنت عايزك تغيرلي كام لمبة في الصالون.

– عيني دي بسيطة أوي.

– طيب خلاص إن شاء الله أنا هجيب اللمبات الجديدة معايا و أنا راجع.

***

نظر العجوز إليها قائلًا:

– أنا عملت فلوس كتير من الرسم ده، حاسس إني مبقتش قادر ارسم تاني.

– ليه يا خال كده، حتى رسمك حلو أوي.

– يا بنتي كل حاجة الواحد بيحاول يجتهد فيها وهو راضي وبيحبها بتكون حلوة، مش الرسم وبس، حبي اللي بتعمليه عشان يحبك.

ممازحًا إياها قائلًا:

– بفكر اعتزل.

– هو انت لاعب كورة و أنا معرفش هههههه.

– طيب أنا هطلب منك طلب مهم.

– اتفضل.

– من النهاردة مش عايزك تدخلي الأوضة اللي برسم فيها، مش عايز حد يدخلها ولا حتى تنضفيها، لأن كل حاجة فيها ليها تاريخ وذكرى عندي، حتى التراب، حتى لوح الإزاز المكسور، والكسر اللي في الباب، سيبيها زي ما هي كده على بعضها بربطة المعلم.

حينها قرر أن يهاديها أجمل ما تتمنى، صورة تذكارية لابنتها التي رأى صورتها عبر ميدالية معلقة بمفاتيحها، ودون أن تشعر اختزل تلك الملامح، والتفاصيل، لون البشرة، نظرة الرسام تشبه آلة التقاط الصور الفوتجرافية لا تحيد عن الحقيقة.

***

بعد 21 يوم.

قررت إدارة المستشفى خروج المريض المدعو «نور صلاح» وذلك إثر طلب تقدم به الدكتور سامي يطلب فيه كفالة المريض على ضمانتهُ الشخصية، بعدما أجاز ذلك التقرير الطبي خارج إطار

المصحة المُقيم فيها، منتقلًا إلى الحياة المدنية بكافة صلاحياتها.

اتجه الطبيب إليه، واصطحبه في هدوء تام وهو يصوب بصره يمينًا ويسارًا كمصور محترف يريد تحديد الكدر الأفضل للمشهد.

ظلَّ يتفقد الطريق بعين المُسافر وهي تودع لوح الإعلانات، حتى وصلوا إلى باب الخروج الرئيسي للمستشفى.

سُرعان ما التقط قطعة من الجير مُلقاه على الأرض، ثم على جدار المشفى مدونًا:

«مفيش أسوأ من إنك تهون على أقرب الناس ليك».

أسدل الطبيب ذراعيه كشراع مركب، واحتضنه متمتمًا قائلًا:

– أنا بعتذرلك عن كل لحظة حسيت فيها بالوِحدة و انتَ وسط الناس، بعتذرلك بالنيابة عن اللي خذلوك، ووصلوك للمرحلة دي، بعتذرلك بالنيابة عن كل شخص خلاك تفقد ثقتك في نفسك بسبب نقصه تجاه الناس.

ثم وضع ذراعًا على ساعده و اتجه نحو السيارة، نظر الآخر نظرة وداع وكأنه لا يُصدق ما يحدث، ثم سالت دموعه وأجهش بالبكاء قائلًا:

– أنا مش زعلان على المكان لإني عمري ما حبيته، أنا زعلان على ناس فيه حبيتها بجد و اتعلقت بيهم.

إن أكثر ما يؤلم الإنسان ليس الإرهاق ولا الخوف ولا المرض، أكثر ما يؤلمه هو الفقد بشتى أنواعه.

ما يحدث الآن لنور هي مرحلة انتقالية شديدة الغرابة، كيف يتقبل حنين شخص ما بعدما فقد حنين العائلة؟ كيف يُصدق بأن ما يحدث هو شعور حقيقي؟

أم ساق القدر إليه في طريقه شخص يؤمن به وبفكره، شخص يفهم ما يود أن يقوله دون أن يبذل مجهود في ذلك، هو ظنَّ أنه منسيّ من تلك الأقدار، نصيبه عابث كصحراء أُغتصبت وحُرِم عليها النبت الأخضر، لِذا سكنها كل مفترث غاشم.

– أنا مبسوط جدًا يا نور إنك هتكون معايا على فكرة، لأ وكمان هنخرج النهاردة بالليل مع بعض.

– أفكر هههههه.

– ماشي يا عم فكر براحتك... فكرت؟

وصلوا إلى المنزل، بعدما جهز له غرفته الخاصة، وملابسه الجديدة، ثم وضعه في أول اختبار للثبات حين أبلغه بأنه سوف يذهب إلى عمله الخاص، ويعود ليلًا ليبدأوا جميعًا يومهم الجديد، قائلًا:

– خد راحتك وعوض في النوم بقى لحد ما أرجعلك، ثم تركه وخرج إلى عيادته.

***

بعد مُعاناة وصراع مع النفس، قرر حاتم رحلة البحث عن طبيب نفسي، ولكن هل سيستعين بأحد أصدقائه، أم أنَّ الخجل والكسوف سوف يجعله يسلك الطريق وحده؟

بدأ يبحث عبر السوشيال ميديا عن أطباء علم النفس حتى استقر على طبيب يُدعى «ألفونس بباوي» بأحد شوراع وسط البلد.

الثالثة عصرًا:

وهو في طريقه يُعاني من تكدس السيارات وغلق الإشارات، وتحويل المسار لمرور شخصية هامة في ذات التوقيت.

حينذاك بدأ يغضب، يقود بحدة، وفي لحظات صدم شاب بدراجة وهو يتجول بين ثغرات السيارات بقفصٍ من الخبز محمولًا على الرأس.

سُرعان ما اجتمع الناس حوله لفض تلك المشاجرة التي نشبت بينه وبين الشاب، حينها كان الضوء الأخضر يكسو الإشارة.

وبدأت السيارات تتحرك بشكل اعتيادي، حتى خرج من هذا التكدس، ليجد نفسه أمام مقهى، فترك السيارة وجلس به، وبمحض الصُدفة يصوب بصره تجاه مبنى معماري قديم فيقع على لوحة مدون عليها:

«الدكتور سامي فخر الدين، استشاري الطب النفسي».

حينها ظنَّ أنَّ هذا هو التعويض العادل لِما سبق من إهدار الوقت، تناول فنجان القهوة، وحوَّل سيجارته إلى رماد، ثم اتجه نحو العيادة وجلس منتظرًا دوره، الذي وصل إلى السادسة مساءً.

دخل في هدوء ولكن صوت الحِذاء كان الأعلى في المكان، ثم جلس مُرَحِبًا به الطبيب، نظر إليه وقال:

– حمد الله على سلامتك ومش عايزك تكون متاخد كده، إحنا هندردش مع بعض، مش هنسحب منك عينة دم يعني.

حاتم: والله يا دكتور أنا.

– لأ استنى هو أنا ينفع أدخل بيتك أكل من غير ما تعزم عليا يا راجل؟

– مش فاهم.

– عرفني بنفسك.

– أها هههه.

– أنا حاتم إيهاب، عندي 30 سنة، أعزب، متخرج من كُلية الهندسة شُعبة إتصالات.

– عظيم، مالك بقى؟

– أنا مش عارف أوصفلك شعوري وإحساسي يا دكتور، باختصار كده بقيت حاسس إن مفيش حاجة ليها طعم، كل ما أتعلق و اتعشم في حاجة تروح مني.

حتى بدأت دموعه تتساقط، وبدأ يتمتم بكلمات غير معروفة، إنه الشعور الأسوأ والأكثر إيذاءً للنفس.

حينما يحتبس الوجع الدموع، نشعر باختناق في كل مجرى للهواء، نفقد ثباتنا، وأمام أتفه الأسباب ننهار كالأطفال.

– ينظر الطبيب إليه في هدوء تام، مُنصتًا للحديث لا مُنصفًا له،

حتى تركه يبكي كما يشاء.

هل من كلاسيكيات الطب يُفضل البكاء كنوع من أنواع الاسترخاء؟ أم الطبيب أشد عبقرية في فهم تلك اللحظات، التي يصعب على عموم الناس إدراكها ومدى أهميتها.

الأمر مثير للدهشة، لكن الله لم يخلق شيء عبثًا.

وضع الطبيب يده على مُسطح الكرة الأرضية بمكتبه، ثم قال بصوتٍ رقيق:

– خد راحتك يا حاتم و ابكي، لكن الوقت ده بيكون على حساب رصيدك من الحياة.

نظر إليه وهو واضع إصبع يده على وجه، وكأنه يخجل من أن يرى أحدًا دموعه التي سرعان ما شكلت بُقعًا على قميصه الأزرق تشبه رزاز المطر في أحد فصوله قائلًا:

– أنا تعبان يا دكتور.

بقيت ديمًا أحس بعدم توفيق في كل حاجة، بقيت برتاح لمَّا ببعد عن الناس وبفضل لوحدي فترات طويلة، مبحبش النور ولا الصوت ولا الشارع ولا الناس.

أنا مش محتاج حاجة، غير إني أرجع زي ما كنت، وأحس بقيمة كل حاجة وأولها نفسي.

❁❁❁

تراكمات (Accumulations)

الدكتور:

بحكم تفاصيل كتيرة بنوصل لمرحلة الهش الداخلي وفقد القوة على الثبات والتحمل، علاقة اديت فيها كل ما تملك، وفي النهاية العلاقة مكتملتش بغض النظر عن مين ساب أو اتساب، بحكم وظيفة كان نفسك فيها ومتوفقتش، صداقة انتهت، شِدة مريت بيها وملقتش حد جنبك، كل التفاصيل دي هي اللي بتكون الحالة النهائية اللي الناس والمجتمع بيشوفوا فيها الشخص.

تشبه المواد الخام لحظة دخولها مراحل الإعداد والإنتاج وفي النهاية بنقدر نحدد مدى صلاحية المواد دي لمَّا تتحول من مادة لسلعة وشكل نهائي.

حال كتير من الناس تايهة ومتلغبطة، ومش عارف هو أساسًا صح ولا غلط، أقولك كأنك جايب مشرط وبتفتح جرح قُدام عينك، حتى لو واخد بنج ومش حاسس بالألم العصبي، عينك بتصدرلك إحساس الوجع، والتأثير بيبان على تعبيرات وشك وكأن التأثير ده بيقولك أنا مش هاين عليا اللي بيحصل ده.

– أنا فعلًا خارج من علاقة وحاسس إني مطحون منها والله، يمكن عشان ظلمت الطرف التاني؟ أنا كنت فاكر إن بغيرها هنساها، غيرها فكرني بيها!

يا دكتور بعد لحظة الفُراق، حسيت إني دفنت حتة حلوة مني في التراب.

الدكتور: كنت بتحبها يا حاتم؟

– هتصدقني لو قلتلك أنا معرفتش يعني إيه حُب غير لمَّا حسيت إنها راحت مني.

أنا هستأذنك وهجيلك وقت تاني؛ لإني مش قادر أكمل، أنا آسف.

الدكتور:

– اممم طيب تمام يا حاتم، مش هضغط عليك وهنتظرك.

أحيانًا نجد الراحة في العُزلة والبُعد، واعتزال الأحداث والتوقف عن المتابعة بشكل عام، التوقف عن كل شيء يبدأ خارج باب الغرفة.

تلك اللحظة المصيرية التي تحدد قوة اجتياز العبء الروحي، إما أن يخرج الإنسان ويواجه آليات الحياة في المجتمع، وإما أن يستسلم لهذا الاختيار حتى ينهار.

***

سلمى في طريقها إلى الجم وهي تشعر كأنها فراشة، هذا الشعور يُصاحب جميع الفتيات وهن في طريقهم إلى أي مكان خارج المنزل.

عند دخولها، ألقت التحية مبتسمة في وجه هشام، فمن طبع الرجال أن يكونوا قوامون على النساء في تلك الأحوال.

رحب بها، وسرعان ما اتجهت إلى إحدى الأجهزة الرياضية ويملاؤها النشاط والهِمة، ظلَّ يتبعها ببصره، وينظر يمينًا ويسارًا، ثم ينظر لها مرة أخرى.

هناك شيء يحدث للمَرة الثانية دون ترتيب له، هناك شغف قد عبر واجتاز واستقر في قلبه تجاهها.

في محاولة للاقتراب منها سائلًا:

– إيه أخبار التمرين النهاردة؟

– التفتت إليه مبتسمة: كله تمام يا كابتن.

ظلَّ ينظر إليها ثوانٍ وبدلًا من أن يتكلم، تنهد.

هل خلق الله التنهيدة لوصف المشاعر التي يصعب علينا التعبير عنها بإيجاز، أم هي علامة ضعف من المُحب للمحبوب؟!

تلك النظرة والتنهيدة والسؤال هُم بوادر الاهتمام المُفرط، مما دفعها إلى مضاعفة جهدها في التمرين حتى كاد أن يُغشى عليها تاركة الجهاز مُستريحة.

لاحظ ذلك هو، ودون أن يُحافظ على ردة فعله، اتجه إليها وهو يجري ممسك بيديها قائلًا في عُجالة:

– خير مالِك؟ فيه إيه؟ طمنيني.

بابتسامة هادئة نظرت إليه وقالت: أنا بخير، اطمن.

– ده اسم كتاب!

بصوت مرتفع من الضحك قالت:

– بغض النظر عن إنه فعلًا اسم كتاب، بس أنا كنت أقصد أقولك إني كويسة يعني.

– بغض النظر عن إني فاهم، بس أنا كنت قاصد إني استعبط.

ثم تبادلا المِزاح سويًا، وبعدها بدقائق اتجهت لتغير ملابسها.

– معادنا بعد بكرة مفيش تأخير يا كوتش.

– اه اه طبعًا.

❁❁❁

The Moment of Confusion

أو ببساطة كده لحظة الارتباك، ودي بتحصل في أول ثانية الواحد بيشوف فيها حاجة مُبهرة وخصوصًا لو كان المُبهر شخص، بغض النظر عن آليات الجسد اللي بتتغير، وضربات القلب المُربكة، ورعشة الإيد وتهتهة الكلام، لكن حقيقي بتكون أمتع اللحظات؛ لأن فيه ناس بتعيش تدور طول عمرها عشان تلاقي حد يشدها ومبيحصلش.

***

مروة:

– كريم يا كريم، انت فين يا كريييييم.

– إيه يا بنتي مالك فيه إيه؟

– انت نجحت... نجحت...

– اووووه. وظلَّ يجوب داخل غرف المنزل كر اقصة الباليه، وبشكل كلاسيكي أخذ وردة من الفاظة الموجودة جانب التلفاز، ثم

اتجه إلى مروة، متقمصًا دور جرسون في فيلم أبيض واسود. منحني بعض الشيء، ثم وضع أحد يداه خلف ظهره والأخرى ممسكة بالوردة قائلًا:

– أتقبلين تلك الوردة يا وردة، اسمحي أن يزداد الورد جمالًا بيديك.

مبتسمة موّرد خدها وهي تحاول أن تُخفي ابتسامتها.

نظر إلى والدته وقال لها:

– الآن تتبدل الأدواروا‌سمحي لي أن أناديك للمَرة الأُولى في العمر، وهذا الاستثناء يحدث للمَرة الأُولى أيضًا.

– يا طنط.

ابتسمت دون صوت، وكأنها تستشعر ما بداخل ابنها، فتلك الأم وحدها تعرف ما بالداخل دون حاجة للحديث، وكأن شيء إلهي يربط عقل الإبن بقلب الأم، إنها الأم يا سادة.

بنظرة شغف قال:

– تسمحيلي، أطلب منك تلك الوردة.

مشيرًا إليها بأحد أصابعه والدموع تُزين خده وهو يرى في الخلفية صورة الأب الذي رحل.

عند موت الأب نشعر وكأن أغلى شيء قد دُفن، وكأن شيء في الظَهر قد كُسر، كل ما في الكون من ترميم ومواساة لا تُعزي فاقدًا عن ما فقد.

ذهبت مروة مسرعة إلى غرفتها، ثم قامت الأم لتحضن ابنها، حينها يكن حضنها المأمن، والمواساة المُرتضاه للفقد.

في محاولة منها لإنهاء المشهد قالت:

بنفس طريقته، أهديك وردتي، وأزيد الوردة تاجًا، فمال على يديها وقبلها.

***

– جبتلك اللمبات أهي يا عم عصام.

– حاضر يا بيه، جنابك بس اتفضل اسبقني و أنا بس مستني السباك جي يصلح ماتور البشمهندس جورج وهطلع في رجليك على طول.

هل للقدر طُرق لا يعلمُها إلَّا الله؟ أم يمكن للإنسان تصورها قبل حدوثها بقربه من الله أيضًا!

إنَّ اللحظة التي يستقر فيها البصر على شيء غاب، وأُدرج في قوائم الفقد، تتشابه مع اللحظة التي يسأل الناس فيها الملائكة عن وجود الله بينهم وهُم ينتظرون مناقشة الحساب أم لا في الآخرة، لينظرون فيروه بأن الله آت آت بموكبه.

حينها يُصاب كل شيء برهبة أبدية لا تنتهي، حتى معرفة المصير، هكذا يفعل الفقد بالأحياء، يصيبهم جميعًا برهبة الخوف الأبدية من فقد شخص آخر.

في محاولةٍ من ابنة الأخت كسر قواعد الخال، بعدم فتح غُرفة

الرسم الخاصة به، وتنبيهه المستمر بعدم التشبث بالأشياء العالقة بها، وتركها بكل ما غطاها من غُبار الأتربة، تسللت في حذرٍ تام وهو يُنصت جيدًا للراديو، مستمعًا السيرة الهلالية حينذاك، محاوِلة تنظيف الغُرفة، فقامت بفتح الشرفة الخاصة بها، وبدأت تقف على أريكة صغيرة لتقوم بإزالة خيوط العنكبوت.

منذ فترة طويلة ويشعر العنكبوت أنه في ركنٍ آمن، لا يرى سوى العجوز، والعجوز لضعف بصره لا يراه.

فبدأت في تمزيق خيوطه دون إدراك لروحه ورأفة به، هكذا يفعل البشر، بكل شيء غير قادر على النطق أو الدفاع.

هل ترانا الحيونات والحشرات، شيء مفترس ووحشي؟ إن كان لا فلماذا يكون الأمان لهم هو الهروب عند رؤيتنا؟

وهل عندما لا ندرك لُغتهم، وهم يشعرون بنا، يعني ذلك بأنهم أشد ذكاء منّا؟

إن كانوا يحملون من الفطنة ما لا نحمله، فقد منحنا الله حق التكريم، وقال –عزوجل– {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَم}.

صعد المصعد، ليقوم بتركيب اللمبات الكهربائية لأحد قاطني العمارة، فور دخوله، ذهب إلى لوحة التحكم وقام بفصل التيار، وأخبره بأن يفتح أحد الشرفات المُطلة على الشارع لتكن مصدرًا بديلًا للضوء.

قام بالارتكاز على مكتب صغير وبدأ في الإحلال والتركيب، وفي محاولة غير مقصودة وقع بصرة خارج الشرفة، لتأتي الرياح بما

تشتهي السُفن تِلك المَرة!، ليجد زوجته أمامه وهي تُنظف حائط غرفة.

إن أراد الله جمع شيء بشيء هيأ الله له كل شيء.

انتفض وارتبك وكأنه صُعِق بالكهرباء، ليقول دون انتباه، دون اعتبار:

– دي مر اتي والله...مر اتي.

وسالت الدموع من عيناه كطفل متعلق بأمه، زاغ عنها وزاغت عنه، فأصبح سلاحه الوحيد البكاء للنجاة.

سمع العجوز تحطم زجاج فاتجه إلى عالَمه كما يصف تلك الغرفة، ليجد ابنة الأخت تنظفها، فصاح فيها وكان قاسي حاد في التعبير للمَرة الأُولى، عندما وجد أحد لوحاته قد تهشم إطارها وامتلأت بالأتربة، فأجبرها على الخروج مانعًا محاولتها في ترميم ما قامت بكسره، وخرج وأغلق الغرفة.

لم يستطع عصام تمالك أعصابه، ولا تركيب اللمبات، وبدأ يهتز وكأنه عجوز لا يقدر على الوقوف أو السير منفردًا.

وذهب إلى المكان ليطرق بابه، فأُغلِق الباب أمامه، ففتح الله له أبو ابًا، باب للصبر، وباب للأمل بعدما رد العجوز قائلًا:

– أنا وحيد، وليس عندي ابنة أو زوجة.

ظلَّ يسأل كل المارة، فأخبروه بصدق العجوز.

لا شيء أسوأ من كسر الخاطر وفقدان الأمل في لحظة، فحينها

كل فلسفة الأرض من كلام لا تُرمم قلبًا أو تُجبر خاطرًا أو تُعزي فاقدًا عمّا فقد، ثم عاد يعاني مرارة الفقد، وكأنه فقدها الآن.

تفعل الذكرى بالقلوب كما يفعل الجرح بصاحبه عندما يُخدش قبل أن يتعافى، فينزف من البداية، ويتألم من البداية، فلا يواسيه أحد، وكأن الجميع اعتاد له الوجع والمرض والتألم.

***

خرج الطبيب من عيادته عائدًا إلى المنزل بعد يوم طويل مليء بالأسرار والاعترافات، وكأنه يُشبه محراب يُسمع فيه ما لا يستطيع البوح به أمام الجميع.

ليجد نور يتناول القهوة ويشاهد التلفاز بكل هدوء، في محاولة مرحة من الطبيب، قائلًا:

– وبتعرف تعمل القهوة كمان.

ليرد عليه ردًا موجعًا:

– ده دليل الحُزن الخام!

كان رد غير متوقع، ليجد نفسه أمام مجموعة من الأسئلة التي يتخللها الغموض.

– تقصد إيه يا نور؟

لو سألت الناس اللي بتعمل قهوة، صدقني هيعترفولك بإن السر اللي بيشدهم ليها هي التفاصيل، في الغالب الناس بتحب الحاجة اللي محرومة منها، واللي بيركز في التفاصيل، مش كتير أوي بتلاقي اللي

يفهمها، أنا بكلمة ممكن أفرح وبكلمة ممكن يومي كله يتقفل، بحاجة بسيطة تحسسني بقيمتي عند حد، ممكن أديله عنيا.

– طيب معلش هو إيه علاقة القهوة بالتفاصيل؟

– عادي يعني لمَّا تحطها ع النار وانت بتراقب فيها بعينك لحظة بلحظة قبل ما تفور، مش دي تفاصيل، طيب لمَّا تهتم إن يكون للفنجان وش مش تفاصيل، ده حتى الواحد مننا بيركز في شكل الفنجان.

– بمناسبة التفاصيل أنا عازمك على خروجة بالليل، هي أُسرية شوية بس مش مملة.

– اللي عانى من الوِحدة أي صوت بالنسباله ونس.

الحادية عشر ليلًا:

خرج الطبيب وبرفقته نور، وكانت المَرة الأُولى على الإطلاق الذي يشعر فيها نور بإنسانيته منذ فترة طفولته التي حينها كان لا يُمكن تمييز الأشياء.

ظلَّ ينظر من خلف زجاج السيارة على الشوارع والمقاهي والأبراج وصناديق القمامة، والمطاعم الفاخرة، كل هذا يجتمع في طريق واحد، طريق واحد قادر على جمع كل هذه الطبقات، لكن تشكل الظروف الناس فتصنف أحدهم إلى هذا والآخر إلى ذاك.

سرعان ما الطبيب اتصل بالأخ الأكبر له، ليخبره بأنه اقترب من الوصول إلى المطعم المرشح للقاء بأحد أحياء المعادي، حينها تغيرت الناس وتغير لبسهم وطريقتهم في التعبير عن الأشياء، حينها

اتسعت الشوارع وتزينت بالأشجار، حينها رأى نهرًا، قائلًا:

– الله! المكان هنا جميل أوي.

– دي المعادي يا نور، وده نهر النيل، انت عارف إن نهر النيل ده بينبع من الجنة!

– طيب ما تيجي نروح الجنة.

– ازاي بس؟!

– لمَّا نوصل لآخر النيل.

نظر إليه نظرة تعجب دون أن ينطق، ثم استمر في القيادة.

وصلوا إلى مقصدهم، وبدأوا يترجلوا في سيرهم، في غضون دقائق، دخل رجل كلاسيكي المظهر وبصحبته فتيات، متبادلًا حُضن عميق، وترحيب حار، فنظر الطبيب إلى نور قائلًا:

– متستغربش يا سيدى، ده سامر أخويا، ودول بناته، أعرفكم بنور صديقي و ابني، حكتلك عنه يا سامر قبل كده، بس طبعًا انت ذاكرة نملة هههه.

جلسوا جميعًا وتناولوا العَشاء والمشروبات، وحضر مالك الشقة الجديدة ليتموا العَقد النهائي ثم ذهب، ثم اختلسوا من الوقت ما يزيد عن خمس ساعات يتبادلون الحديث عن الشقة الجديدة والحياة والتغيرات، وكان لموقف الشاب الذي التقى به في الكافيه معجبًا بفريدة نصيب من الحوار، انتبه أحدهم بأن المكان أصبح لا يحوي غيرهم.

إنَّ عقارب الساعة تتسارع في المُضي عندما تكون مع من تحب، عندما يكون المشهد مألوف ومرغوب للغاية، حينها القدر يكن ضدك ويمر الوقت في لمح البصر، وكأنك منذ قليل قد جلست.

في بعض الأحيان تظن بأن القلب لا يختزل سوى الفراق والوجع، سوى المشاهد القاسية ولحظات الوداع.

كلٌ منهم عاد إلى شقته، بعد وقت ممتع للغاية على حد وصفهم جميعًا، لكنهم عادوا مُنهكين متعبين تارة من الطريق، وتارة من الجلوس لوقتٍ طويل على المقاعد.

في اليوم التالي، استيقظ الطبيب، ليبدأ يومه العادي بدءًا من الشُرفة المُطلة على حُجرة قد أغلقت لفترات طويلة بعدما اعتاد أن يرى منها عجوزًا لكنه يحمل روح الطفل بداخله، وهذا يبدو عليه من طريقة تحركه، ألوان ملابسة، ...الخ

لم يطل الوقت، وسرعان ما أشرقت الشمس حتى ظهرت المارة، فأغلق النافذة في هدوء تام، وبدأ يشاهد الأخبار في التلفاز، وقف أمام صورة زوجته المُعلقة في الصالون بضع دقائق، ثم استأذنها في الخروج كالعادة.

عندما يُحترم الشخص في المغيب قبل الحاضر، ويقام له تقديرًا يكن الشخص قد وصل إلى أعلى مراحل الإيمان، ألا وهي الحُب الخالص.

هكذا كانت تفعل السيدة عائشة، عندما دُفن عمر بجوار رسول الله و أبو بكر، كانت لا تدخل الحجرة إلَّا وهي مُسدلة ومُثقلة ثيابها،

استحياءً من عمر، وهو ميت.

دخل عيادته، وطلب فنجان قهوته الذي أصبح من كلاسيكيات يومه، في محاولة أخرى منه لمر اقبة المارة من شُرفة مكتبه، حتي جلس وبدأ يلمس بيداه مُسطح الكرة الموجود بجواره على المكتب، ثم قام بالإتصال على هاتف المنزل، وهي المَرة الأُولى منذ عشر سنوات بعد وفاة زوجته، ليجيبه نور.

في ثوانٍ استشعر رفع السماعة وهمس النفس والصوت وكأنها زوجته، منفصلًا عن ذلك الشعور حينها في قمة الاتزان قائلًا:

– إيه يا بطل صحيت من بدري!

– على فكرة بقى أنا حسيت بيك و انت نازل، أنا عايز آجي معاك العيادة ، هساعدك.

– هههههه.

– متستقلش بقدراتي.

– أنا بضحك مبسوط يا حمار.

– خلاص من بكرة هكون وياك هههههه.

– انت ما صدقت، ماشي يا عم افطر وشوفلك فيلم لحد ما ارجع.

– سَماع صوت الجرس داخل مكتبه، هو الشعور الأصدق لنجاح الطبيب، كالكاتب الذي يتلقى رفيو لبعض أعماله، والفنان الذي يستقبله الجمهور بتصفيق حاد، كلاهما يُعبر عن النجاح بطريقة ما.

إنفرج الباب في هدوء مُخجل، إذ يكن الطارق هو حاتم.

إعتاد ذلك الطبيب على كسر قوانين المعاملة ما بين الطبيب والمريض، عندما همَ من على مكتبه ليستقبل مريضه الذي يصفه بصديقه المفضل، لم يكن حاتم فحسب!

كل مَن اجتازت قدماه حدود هذا المكتب، يُصبح صديقًا له.

– ترجلا سويًا وهو ينظر إليه بشغف العائد من الخارج، ثم جلسا كل منهم في مكانه، ولا شيء يعلو في المكان سوى الترحيب الحار به.

حينها أدرك بأنه أمام أب مثالي من الدرجة الأُولى، الذي طالما ظلَ يقرأ في الكُتب والرويات عن تلك الشخصية، وجدها مؤخرًا، صدقًا مؤخرًا، لكنه وجدها.

الطبيب قائلًا:

– حاسك متغير للأحلى بكتير.

– أنا عينى بتفضحني قدامك ودي نقطة ضعفي يا دكتور.

– بس ده حُب مش ضعف.

– عندنا اللي بيحب بيبقى ضعيف.

– الحب اللي ميقويش ميبقاش حُب، والعلاقة اللي خالية من الأمان علاقة مؤذية ومرهقة، والشخص اللي ميخلكش مطمن ده عمره ما حبك ولا هيحبك.

– الحمد لله على كل حال يا دكتور، أوقات كتير الواحد مننا

بيكون محتاج يتخبط خبطة كبيرة عشان يفوق من الوهم اللي بيكون عايش فيه، أنا عرفت دلوقتي إن اللي بيقع وميلاقيش حد جنبه ويعافر ويقوم، ده مش بس بيفقد ثقته في الناس، لأ ده كمان بيستغنى عنهم.

– طب إيه، الحياة هتسير في أي اتجاه كده؟

– والله يا دكتور قررت أعمل الحاجة اللي بحبها، أنا هعمل شركة بتنفذ حفلات ومؤتمرات وندوات وهكذا، يعني أنا بحب المجال ده جدًا، هحاول أدي كل طاقتي فيه، عايز انجح، انجح بقوة.

– بالرغم من إن ده عكس دراستك، لكن مفيش مانع اعتبرك ياباني، بتشتغل برغباتك، عايز تكون ناجح؟

– لأ، عايز لمَّا حد يشوفني يحلف إنه في يوم من الأيام كان يعرفني، عايز أكون مميز مش ناجح وبس.

أنا جيت عشان كنت حابب أفضفض معاك ولو بشيء جو ايا، جيت و أنا حاسس إنك فعلًا أب روحي ليا، وهكون مبسوط أوي لو سمحتلي أسأل عنك باستمرار.

– مفيش حاجة في الدنيا ممكن تسعد الواحد مننا غير إنه يحس إنه ليه قيمة موجودة فارقة في حياة شخص واحد على الأقل.

ثم وقف ليُصافح الطبيب مبتسمًا، أحكم الطبيب قبضة يده على يده ليرتفع البصر وتنظر العيون نحو بعضها، لتسرد وتختصر ما لم يسعه الوقت من فضفضة، ثم استأذن في الخروج، فأذن له.

***

بعد مرور ثلاث سنوات:

نزل هشام من سيارته، ثم دخل مكتبه الموجود بالمركز الرياضي، ليبدأ في تناول مشروبه الفريش، ثم يشرد ذهنه، بضع دقائق يتذكر عندما ضاقت الدنيا عليه بما رحُبت من قبل، وظلَّ تارة جالس في منزله وتارة يجلس على المقاهي.

لم ينسَ أبدًا اللحظة التي أبلغه فيها صديقه عندما وجد له عملًا داخل صالة رياضية، فحينها كان ذلك أقصى طموحه، لم يخطر بباله أبدًا في يوم من الأيام أنه يمتلك مركزًا رياضيًا كهذا.

ما أجمل الرحلة إن كانت نهايتها كما نُحب، عندما يُدبر الله لك كل لحظة استنفذتها في سبيل حلمك، عندما يرى عرقك المبذول من أجل الوصول، في نهاية الأمر تشعر بالقوة بأن هذا العناء لم يكن منسيًا، بأن الجُهد المبذول كان في موضعه، حتى وصلت إلى ما سعيت من أجله.

سرعان ما تذكر صاحب الفضل عليه بعد الله، مَن أمن به وهو تائه متخبط، عديم الحيلة ضعيف الاختيار، الأب الروحي له، الدكتور سامي.

ظلَّ يسأل نفسه هل يلومني على عدم سؤالي الفترة السابقة؟ هل أذهب إليه؟ وكيف أُبرر له ذلك؟ أم أبقى كما أنا وتدور الأيام؟ أحيانًا نمتنع عن السؤال خشيةً من العِتاب.

ولكن ضميره الداخلي، ألحَ عليه بالذهاب.

أكثر ما يؤلم الإنسان أنه يفقد نعمة بعد أن اعتاد على وجودها

وتعايش معها.

***

أصبح العجوز ضعيف البصر كما تصفه ابنة الأخت، والرسام العجوز كما يصفه العامة وخاصة الطلاب.

في داخل مملكته المغلقة يوجد شيء مُثير للدهشة، وبالغ الأهمية والأثر، لا أحد يعرف ما بالدخل، لأنه عاقبها بمنعها من الدخول.

ظلَّت تخدمه وتبره، وهي متقبلة ذلك ولا بأس عليها، حقًا أنه لين الجانب ومنبت المعروف والحَنين في الأرض.

أصبح صديق العجوز الوحيد منذ شبابه ذاك الراديو، الذي كبر وهو يصاحبه وينصت له، وظلَّ يُكمل ما تبقى له في الدنيا بكل رضا، دون أن يسمح بتنظيف حجرة الرسم التي طالما تُلح ابنة الأخت عليه بتنظيفها مرارًا وتكرارًا.

***

دخلت سلمى في عُجالة وهي تُتابع حركة سير التمرين داخل الطابق الخاص بالسيدات التي أصبحت مديرًا تنفيذيًا له، بعدما كانت مجرد مشتركة به، حقًا دوام الحال من المُحال.

سُبحان مُبدل الشعور من العدم للأمل، ستُدرك يومًا بأنك ستتجاوز كل مُر مَر، طالما تمسكت بالله.

لم تكن تلك الحقبة من الزمن عادية في حياة ذاك الطبيب، فقد أصبح أكثر شهرة بين الأطباء، فهو الطبيب الوحيد في وقته الذي كان

يُعالج دون عقاقير طبية، هذا الأمر مُدهش، قد يكون خارق لطبيعة الطب ومشتقاته، يمكن الاستغناء بنسب عن العقاقير الطبية لكن التخلي التام هو أمر صعب، بل مستحيل على الطبيب أن يجرؤ على تنفيذ ذلك!

أصبح الوصول إليه سهلًا، وهي المعادلة الأكثر دهشة في العالم.

كبر معه نور، الذي قرر إنه يتغير، والتحق بنظام تعليمي معترف به في مصر ويعرف باسم (نظام التعليم المدمج)، التحق بكلية الآداب، بقسم علم النفس!

مَن عانى من شيء، كان أشد الناس إدراكًا وحِرصًا عليه، اجتهد حتى وصل إلى المرحلة الثالثة.

***

لم تقف الحياة بعم عصام عندما كانت عليه، لم يستطع أن يُكمل بقية عمره حارس لعقار، دائمًا يتذكر اللحظة التي هُيئ له رؤية زوجته يومًا ما، فقرر أن يعود إلى مهنته من جديد، وأصبح يمتلك مكتب لتأجير ديزل الكهرباء للأفراح والمناسبات، ترك العقار ولكنه لم يترك الأشخاص، فأصبح ذو ود و اتصال دائم بهم.

***

الجميع في المنزل على أعصابه، الكل يسانده كالعادة، أذكر عندما كنت جندي في الجيش المصري عام 2010م تحديدًا 25 نوفمبر، حينها أصدر المجلس العسكري قرارًا بحظر التجوال، و أنا عائد إلى الوحدة العسكرية، كانت المَرة الأُولى لي على الإطلاق التي

أُشاهد بها الدبابات الحربية وسط المدينة وهي تمنع عبور السيارات حفاظًا على أمن الدولة وممتلكاتها من التخريب.

حينها كان الهدوء هو الذي يسيطر في المشهد، لا ضجيج ولا خروج عن المألوف، فذلك كان مرفوضًا، ذلك المشهد يكاد يُنقل بالكربون، داخل منزل كريم، وهُم في انتظار إعلان نتيجته في الفرقة الثالثة لكلية الهندسة، بعدما مرَّ بوعكة صحية طالت هذا العام، كان الجميع يخشى عليه سرًا، ويخشى هو على الجميع جهرًا.

اخترقت مروة حاجز الصمت كالعادة، مُعلنة نجاحه بتقدير عام جيد جدًا مرتفع، متجهة إليه قائلة:

– اللي في حياته بنت بتحبه، مش هيشوف غير النجاح.

انتشرت البهجة في المنزل، كفُستان ممتلىء بالورود، كلما نظرت إليه ابتهجت كونك تراه فقط.

***

لم يتغير مكان الجرس بل تغير صوته، ترك الجرس وتذكر آخر مَرة كان فيها هنا، وماذا كان تصنيفه حينذاك.

فُتح الباب ثم دخل وهو ممتلىء الجسم بعض الشيء، أنيق الملابس بشكل كلاسيكي، عطره فاح في المكان بأسره، سرعان ما تزداد خطو اته ليُقبل هو على أباه وأخاه وصديقه وفي النهاية طبيبه، الدكتور سامي.

سرعان ما تذكره الدكتور، رغم التغيرات التي حدثت من خلال الوزن الزائد، لكن تبقى القلوب حلقة الوصل الحقيقة، فإنها لا

تخطىء أبدًا في التنبيه أو الاختيار.

سرعان ما ارتطمت قلوبهم بعضها البعض من شِدة العناق، حُضن يكاد يُشبه حُضن المطار.

حاتم:

– وحشتني جدًا يا دكتورو الله، ثم سالت دموعه.

– كويس إنك فاكر لسه إسمي، اتغيرت يا واد.

– ابنك، وسرعان ما حاول حجب دموعه.

– طمني عليك، عامل إيه و إيه الغيبة الطويلة دي؟

– أنا في زحام من فضل ربنا عليا، والحمد لله بقى عندي شركة الحفلات اللي كلمتك عنها فاكر؟

– اه يا بن الل، تَبت في حلمك ومسبتهوش.

– زي ما حضرتك علمتني عدم الاستسلام.

– لا طمرت فيك التربية.

– هههههه، أنا دلوقتي بقيت معروف من خلال شركتي الحمد لله، والحقيقة كنت حابب أجي أفرحك بنجاحي ده، و أقولك إن ابنك عنده شركة رهن إشارتك في أي وقت، ولأي حد من ريحتك.

و أنا كنت عندك من سنين كنت بشوف فيك اللين والحَنين، كنت لمَّا بخرج من عندك بقول لنفسي هو أنا ممكن أرد جزء من الجميل ده إزاي، أنا هكون ممتن ليك واللهلو طلبت مني حاجة.

– معنديش أولاد أعمل ليهم فرح ما انت عارف، أوعى تكون بتعزم عليا عشان انت عارف المعلومة دي هههه هههههه.

– أبدًا والله يا دكتور.

– أكيد يهمني نجاحك، ويهمني متخليش شغلك ينَسيك نفسك.

– أنا مرتب حياتي الحمد لله يا كتوروماشي بالورقة والقلم على خط السير بتاع معاليك، عشان وقتك هستأذنك دلوقتي، واسمحلي من وقت للتاني أزورك واطمن عليك.

– من دواعي سروري طبعًا.

– الله، حضرتك مميز في كل حاجة حتى ردودك.

مبحبش الروتين، مبحبش اللي بيحبوا الروتين، مبحبش أي حاجة تكون عادية.

– يلا بقى على شغلك يا بكاش.

– حاضر، السلام عليكم.

***

– حقًا أحبها هشام، كيف تعرف أنه أحب؟

نُدرك أننا وقعنا في الحُب، عندما نقم بأشياء لم نفعلها من قبل، عندما نقتحم قلوبهم ونُجبرهم على الثرثرة معنا، عندما نر اقب التفاصيل، ونكن كالظل أينما كانوا وجِدنا نحن.

عندما نفعل ما يراه الناس بمثابة الجنون، كما وصفوا العرب

في قديم الزمان، لكن لا بأس حينها، فمن أحب كُتب عليه التحمل، والمُعافرة والمصابرة، حتى يتحين فرصة أو انفراجة صغيرة من خلالها يفضح حُبه بخاتم وعَقد شرعي.

ذهب قبل العاملين في مركزه الرياضي، ووضع جواب مكتوب بخط اليد مدوّن به:

«منذ سنوات ولم أجد مَن أكتب ولا أبوح له بمشاعري، حتى ساقنا القدر في طريق بعضنا البعض، لن أنسى المَرة الأُولى التي استقبلتكِ فيها، وكنت أشعر بأنك مرتجفة كوني ذكوري، لكنني تفهمت وأدركت السوء الذي دفعك إلى هُنا من أجل نسيانه، لم يشغل بالي أن أُفتش في الماضي، فهذا ليس من شيم الرجال، أحببتك بكل ما فيكِ.

وعندما ظهر ذلك عليّ، سألني أحد ذات مَرة هل تُحب؟ فقلت:

و إني أُحبها وهي سيئة المزاج، وهي باهتة من الإرهاق، أُحبها بما أسفل عينيها من سمار وأرق، من تغيرات تظهر على وجهها، أُحبها في أسوأ حالتها، يراها الناس من الخارج، وعيني لا تعرف لها مسلكًا سوى روحها، كم هي جميلة في عيناي!

– إلى أي حد تصف جمالها؟

– إلى الحد الذي لا حد له.

كتبت لكِ هذا و أنا في أعلى مراحل الاتزان، كتبت ما كتبته و أنا في كامل اتزاني ولست تحت تأثير أي نوع من أنوع الاحتياج العاطفي سوى الدائم الذي يُتوج بخاتم ودبلة ومنزل، هشام، سلمى ♥».

بعد ساعتين بدأ المكان يزدحم بالناس، وبدأت سلمى تمارس

عملها دون أن ترى هذا الجواب، حتى أوشك اليوم على الانتهاء، إذا بأحد الحضور تقوم بسداد رسومها قبل المغادرة، فيقع بصرها على هذا الجواب.

فتبسمت ابتسامة خفيفة دون تعليق، فلاحظت ذلك مما دفعها للسؤال قائلة:

– بتضحكي على إيه هههه؟

– لأ مستغربة أوي، إن لسه فيه ناس عندها زوق ستيني كده وبتستخدم جوابات ورق.

– جوابات إيه؟

مدت يدها ممسكة بذلك الجواب الذي كان يحوي بداخله أشبه برسالة سرية كرسائل حرب 1973م التي استخدمها المتطوع أحمد اسماعيل، مستندًا ومعتمدًا على لغة النوبة، حسب ما ذكرته المجموعة 73 مؤرخين عسكريين.

إندهشت قائلة:

– أنا على فكرة معرفش ده بتاع مين، بس إتس أوكي هعرف، وميرسي لمر اقبة التفاصيل، هههههه.

– عندك واحدة كده يا كوتش.

وضعت الجواب في حقيبتها، ثم حملت حقيبتها متجهة إلى منزلها، قبل دخولها، كما تفعل جميع الفتيات، بدأت تتصل بصندوقها الأسود الذي يحوي بداخله تفاصيلها والشاهد الأوحد على الأسرار،

كاترين

– من غير سلامات ولا مقدمات، عايزاكي.

كاترين: عملتي مصيبة؟

– بصي أنا لقيت جواب ورق على مكتبي وخايفة افتحه.

– عايزة تقنعيني إن الجواب من هشام؟

– مش عارفة بس اه، بصي خليكي معايا و أنا بفتحه ادعي يكون هو.

بصوت خافض متحدثة كاترين:

«نؤمن بإله واحد، خالق السماء والأرض، وكل ما يُرى وما لا يُرى».

– كاترين كاترين، ما تنطقي يا مجنونة من هشاااااام!

– أووووو.

وظلَّ يتبادلان الحديث قرابة الساعتين، كعادة الفتيات مع بعضهم البعض.

أحيانًا يخرج الإنسان عن المألوف، يخرج عن النظام النمطي لبدء الحديث والإبداء بالرأي عندما يشعر بقيمته وقدره.

ولكن لكل ردة فعل شيء سابق، مما يجعل الإنسان حريصًا كل الحرص على أن يغتال الفرصة عندما تُتاح له.

لا شيء يتساوى في الألم بألم الفقد، حينها كل فلسفة الأرض

من كلام لا تُعزي أحدًا عن فقده، لا تُعوض ولا تُجبر كسرًا، إنَّ الفقد يُصيب الإنسان بكسر وشروخ داخلية يصعب ضمها ولمسها وتشخيصها ووصفها، ويبقى وحده من يعرف المرض، وحده من يتمنى الشفاء، الجميع يتمنى تجاوز الأشياء السيئة، لكن هل عند تجاوزها نبقى كما كُنا، أم نتجاوز روحنا معها؟

***

ذهب كريم إلى عيادة الطبيب انقطاعًا طويلًا، وظلَّ جالس ينتظر دوره كمريض في منطقة الانتظار المخصصة حتى حان موعده، دخل في خجل وهدوء تام، ولأنه أبيض البشرة فسرعان ما تورد خده من الخجل المُفرط.

الذين يعانون من الخجل، هُم أشد الناس حساسية، فيتهمهم الناس بالانطواء.

في لحظات تذكر الطبيب هذا الصغير، لكن غاب عن ذاكرته الاسم، كالعادة، الترحيب الكلاسيكي بكل زائر لا كل مريض يدخل هذا المكان كما يصفه.

جلس مبتسمًا موردًا خده، حواف أُذنه شديدة الاحمرار، وهو متقطعًا في الكلام، قائلًا:

– ازي حضرتك يا دكتور؟ طبعًا حضرتك مش متذكرني، أنا كريم كنت جتلك من حوالي 3 سنين ونص ومعايا بنت.

– أنا فاكرك من أول موقف حصل هنا قدام عيني بينك وبين البنت اللي كانت معاك، لكن مكنتش قادر أفتكر الاسم للأمانة.

فابتسم وزال عنه بعض الشيء من التوتر، حتى بدأ يسترخي في جلسته.

قائلًا:

– أنا دلوقتي داخل رابعة هندسة، وجي بقولك إني هتجوز مروة اللي كانت معايا، ومش هعمل حاجة غير في وجودك، حضرتك بالنسبالي أب مش دكتوروبس.

ترك الطبيب مكانه، ثم جلس في وجهته وهو يُنصت له جيدًا، ولكن خانه الوضع وسالت دمعة منه فسرعان ما احتضنه مجهشًا بالبكاء.

لم يقتصر البكاء على الحُزن فقط، ولكنه يُعبر عن الكافية عن الفيض، عند الحزن نبكي وعند الفرح، عند الضعف والشدة نبكي.

– أنا حاسس بمشاعرك تجاهي يا كريم، ودي مسئولية كبيرة عليا، لكن بوعدك إني أكون قدها، واساعدك في قراراتك وحياتك، فرحك هدية مني ليك، رتب أمورك انت و أنا هحدد الفرح والمكان.

– بس أنا مش هنا عشان أكلفك.

– وهو فيه ولد بيكلف أبوه بحاجة، ولَّا هو كلام وخلاص.

– طيب خليني أساعد.

– الأب بيساعد ابنه ولحد ما يكبر وهو في عينه طفل صغير.

طبطب عليه وطلب منه أن يذهب إليها، يشاركها تفاصيله القادمة.

ابنوا حبًا حقيقيًا سرًا، حُب يعلمه أهل البيت، حُب محجوب عن التجارة والناس، حُب أسراره تُعلن في الصلاة، يكمن في الروح لا الجسد ولا المنصب.

حُب يخلو من زيف الحياة والمظاهر، يكمن بين أركان البيت، تشهد عليه العائلة، ثم حينها يخرج للنور متوجًا، لا جدير بالذكر يُذكر حينها، فمَن يفعل ذلك هم الأحبة الصادقون فقط، ما دون ذلك هو إدعاء باطل باسم الحُب.

خرج كريم من العيادة وكأنه يمتلك أبًا حقيقيًا بكل ما تحمله الكلمة من معاني الأبوة، ثم ظلَّ يجوب في الشوارع وكأنه مشكاة ريشة تحملها الهواء بكل خفة، حتى وصل إلى المنزل ليُعلن قراره أمامهم جميعًا.

وخرج الطبيب من عيادته، بعدما أنهى يومه المهني متجهًا إلى المنزل ليجد نور مندمجًا مع ناشونال جيوغرافيك بدقة وكأنه باحث، قطع الطبيب تركيزه بابتسامته المعتادة، قائلًا:

– بقولك إيه يا نور، أنا زهقت من الأكل اللي مش بنعرف نعمله وكل يوم ناكله من الجوع ده.

– كان نفسي أقولك كده من زمان، بقى عندي إمساك من عمايل إيديك.

– بقى كده هههههه.

– مش القصد يعني بس تسلم إيدك الأكل ما يتكلش.

– طب يلا يا فقري هنخرج ناكل بره النهاردة.

– أخيرًا إفراج، (مبتسمًا).

– خرج سويًا وهما يتبادلان الحديث في قمة المرح، وتعبيرات الوجه في قمة القبول والجمال، كأسراب الطيرعند الهجرة، بكل يقين تكن اللحظة الأخيرة التي نرى فيها هذا السرب لكن من روعته ننسى مرارة فقد المشهد، ونتأمل هذا السِرب وتفاصيله وهُمَ يتبادلان الأشكال في قمة الدقة، يُشبهان تشكيل عسكري لجيش كوكب اليابان الشقيق وهو يستعرض قواه أمام القادة.

– دخلا المطعم وجلسا في ركن هادىء، متحدثًا الطبيب قائلًا:

– ها هتاكل إيه يا سي نور؟ ولا أطلبك على مزاجي.

– (بضحكة بلهاء) أرجوك لأ سيبني أختارولو مَرة.

بضحكته المميزة لفت انتباه الزائرين، ليكن من بينهم، هشام، كم صغير هذا الكوكب للغاية رغم شساعته الجغرافية.

دون تردد ودون أن يخيب ظنه ترك مكانه واتجه نحو الصوت، ليجد بالفعل الدكتور سامي، يتبادلان التحية وكل منهم يحتضن الآخر قائلًا هشام:

– مش معقول، والله كنت محتاج أقابلك ضروري.

– يا ابني أنا محدش يتوقعني.

– قبل أي كلام العشاء ده عليا النهاردة يا دكتور.

(مُقاطع الطبيب في الحوار) قائلًا:

– والله العظيم ما هي راجعة.

– ابسط يا عم نور، شوف بقى عايزك تحقق طموحك النهاردة هشام اللي هيحاسب.

– إن أراد الله جمع شيء بشيء، أُدهش الجميع لدرجة تجعل الجميع يتساءل كيف حدث ذلك، سُبحان من ساق القدر إلى المُقدر له، ليجعل الأسباب تذوب كما تفعل الشمس بالثلج، والنار بالحديد، سُبحانه.

– باختصار كده يا دكتور أنا هتجوز، وطبعًا انت عارف إني وحيد ويشرفني إنك تكون موكلي وأب ليّا، والله من دواعي سروري ده.

الطبيب بصوت داخلي:

أيعقل أن يدرك الولد قيمة الوالد، فيبحث عنه داخل الناس بهذا الشكل المثير؟ أم ليالي الحرمان تُجبر البعض على تعديل أماكنهم وصفاتهم في حياتهم لتتطابق مع رغباتهم؟!

إرتفع الصوت رويدًا رويدًا وقال:

– طول عمري بعاملك كإبن يا هشام، مش معقول هتأخر عنك في يوم زي ده، ده يوم المُنى يا ابني والله، قولي حددت الفرح ولا لسه؟

– لأ أنا لسه أساسًا مقولتش للعروسة هههههه.

– انت غريب يا أخي، بقولك مش أكلنا وشربنا؟

– اه.

– اتفضل روح بلغها بطريقتك، بس قولي انت متأكد إنك بتحبها ولا متعود عليها مش أكتر.

– أنا بحبها بطريقة مختلفة، بحبها بطريقة خالية من الكلام كلها أفعال، بخاف عليها وبشوفها وقت ما تغلط بعين الأب، أنا عمري ما كنت في محنة أو شِدة غير ولقيتها أول واحدة في الصف.

– عرفت تختار يا إتش، روح ومترجعليش ولا تكلمني غير وهي مو افقة عليك، يا بخت اللي يلاقي بنت بتقبل بيه وهو في أضعف حالاته وبتفضل جنبه، ربنا لو رضي عنك، هيبان الرضا ده بالزوجة الصالحة في الدنيا.

– حتى لو موفقتش، أنا مش همشي ولا هسيبها غير لمَّا تو افق تاني.

يا دكتور أنا متشعبط فيها والله من غير ما تحس بحبها من غير ما اعمل حِس.

– بكلم سقراط ولا إيه، هنتظر منك رد قريب.

– هي مو افقة من دلوقتي هههههه، حاضر حاضر، سلام عليكم.

الهاتف يرن:

– الو.

– أهلًا يا فريدة عاملة إيه؟

– أنا بتعشى بره والله أنا ونور، طيب أوك من غير ما تستأذني يا حبيبي تنوري البيت قبل المكتب.

اليوم التالي:

استيقظ الطبيب على صوت آذان الفَجر، بدأ يراوض نفسه ما بين الصلاة وما بين النوم، حتى قرر أن يَهم للصلاة، خرج من غرفته ثم توضأ وصلى الفَجر، وكالمعتاد لا تخلو دعواته من ذِكر اسم زوجته، بل يجعلها في مقدمة كل دعوة.

ما أعظم المخلصين الذين حبوا بصدق قلوبهم، الذين عندما اختبر الله صبرهم في قلوبهم، صابروا وجاهدوا وعلى الدعاء داوموا رغم مشكلات الحياة ومشاغلها، هُم على يقين تام بأن سلامهم وتسليمهم يصل إليهم، إنه اليقين.

فتح الشرفة كالعادة، ليجد أمام بصره الرسام، الذي منذ فترة طويلة لم يره، ظنَّ بأنه قد فارق الحياة!

ظلَّ يراقبه بعين الأب وهو يراقب طفله الذي يحبي أمامه ويُهشم كل شيء يقابله، حينها يكن الأب أسعد شخص بهذا الكوكب.

سبحان من جعل الخراب في عينه جمالًا؛ لأن المرتكب حينها هو رمز للجمال.

ظلَّ يراقبه حتى رأى سيدة أربعينية وهو يستند عليها ويجوب في حجرته، هذا الرجل في ركنٍ آخر من هذا الضجيج، فهو منعزل ومكتفي بنفسه عن هذا المجتمع.

كم مِنّا لا يُحب الضجيج، ليس كبار السن فقط، بل المنكسرين الذين اختبر الله صبرهم في الفقد بالموت أو البُعد، كلاهما بلاء، وعند البلاء يرغب الإنسان في الوحدة، لا يرغب في الظهور منكسرًا

أمام أحد.

حتى ظهرت الناس في الشوارع، فسرعان ما أغلق النافذة، وكأنها تطل على النار لا على الناس.

ثم خرج متجهًا إلى وزارة الصحة؛ ليراجع بعد التقارير والمهام، غالبًا لا يصدر أمر تكليف من الوزارة بالطبيب إلَّا في الكوارث والأحداث العامة الكبرى، هل هذا لسوء حظه، أم لكفاءته المهنية؟ غالبًا الأُخرى هي الأصدق، ثم بعدها توجه إلى عيادته.

كعادته أينما يدخل، وأينما كان التوقيت، فهو يبدأ بأول شيء فنجان قهوته المُفضل، الذي طالما يتأمل البقعة الداكنة، عندما يوشك على الانتهاء.

رغم أنَّ التفاصيل مُرهقة للغاية، لكن بها يكمن الجمال، بها نخرج عن المألوف، لا نترك للروتين فرصة يتحين لها بأن يُفسد جوهر كل شيء.

يقف داخل مكتبه، ويعطي ظهره للباب، يمسك بيداه حافة السِتارة، إذ فجأةً عطر يغتال مكتبه، دون تردد يلتفت بسرعة البرق، فينسكب الفنجان من يده، لكنه لم يبُالِ، فهناك حدث أهم، إنها الفريدة فريدة، ابنة الأخ الأكبر. قائلة:

– أنا آسفة يا عمو على الكركبة دي.

– فن اختيار البرفيوم يا فريدة اغتالني!

– هههههه حضرتك عامل إيه؟

– بخير يا حبيبتي ازيك وازي بابا وشروق؟

– هو أنا النهاردة جاية عشان شروق، شوف يا عمو باختصار، أنا عايزة أعمل عيد ميلاد شروق مفاجأة ومرضتش أقول لبابا عشان أعمله مفاجأة ليهم هُما الاتنين، وعايزاك تساعدني في ترتيب يوم زي ده.

– شوفي سبيلي اليوم ده، و أنا هبهرك يا فريدة، أنا صحيح راجل ستيني دلوقتي هههههه، لكن قلبي عشريني ما بيكبرش.

– طب بص يا عمو...

(مقاطعًا فريدة)، أنا قولتلك هبهرك امتى بس اليوم؟

– لسة 20 مارس.

– ده لسة باقي 3 شهور يا فريدة.

– ما انت عارف بقى لسة باخد المصروف من بابا.

– امشي اطلعي بره يا بنت هههههه اليوم ده عليا بالكامل ♥ دي بنتي، أنا هرتب كل حاجة وهفاجئكم انتوا التلاتة.

– (بصوت خافت) ربنا يستروالله.

– سمعتِك على فكرة هههههه.

– طيب هستأذن بقى يا عمو.

– يا قلب عمو خلي بالك على نفسك.

ملوحًا كل منهم للآخر بيده، يتبعها بابتسامة رضا وحنين الدم إلى

الأهل.

لم يمر الموقف مرورًا عابرًا على الطبيب، بل ظلَّ يتأمل هذا الحُب المنبثق من فكر وقلب تلك الفتاه تجاه الأخت، تجاه الأب، كيف تبحث بكل أريحية وبساطة عن شيء خارج عن التوقع، عن شيء يجلب السعادة.

إنَّ مَن وفر هذا المناخ داخل البيت هو الأكثر فوزًا بهذه الثمار، مَن ربَّى وأحسن التربية والمُآخاه، له الجزاء الأكبر في الدنيا قبل الآخرة.

عاد بعدما شرد ذهنه بضع دقائق، ليخطر بباله فورًا حاتم، ليطلبه في عُجالة على الهاتف؛ ليقوم هو بترتيب عيد الميلاد، حينها يتدخل القدر ويُبدع في تصفية الحسابات.

ونُدرك بأنَّ الله قادرًا على الجمع بعد الشتات، والقُرب بعد البُعد، الله وحده القادر.

في أقل من ساعة، كان حاتم قد وصل لمكتب الطبيب، ليعرف كافة التفاصيل، وسرعان ما لاحظ الطبيب، علامات الحُزن على وجهه، أحيانًا ينجح الناس في إخفاء ملامح حُزنهم، لكنهم يفشلون مع مَن يروهم من الداخل، مع مَن يُحبوهم بصدق، هم يشعرون بهم دون الثرثرة والحديث.

يظهر الحُزن في الكلام، في ردة الفعل والتصرف، إنه يُطفىء الملامح تمامًا ويُغيرها، ويصيب الوجه بالعجز.

في اعتقادي لا يجب تشخيص الحُزن كحالة مزاجية أو شعور

سيئ فقط، بل يجب وصفه بمرض خبيث، إن لم يُقضى عليه من البداية، قضى هو على صاحبه ومَن يُصاحب صاحبه.

هل هذا تضخيم الأمر هكذا؟ ليس تضخيم، ولكنها الحقيقة السوداء، التي يرفضها الجميع، إن كان الملح والسكر يعادلان الكنسر! فما بالك بالحزن؟

كن حذر من كل شيء يقترب مِنك، فأنت لست استثناء، ولست منفردًا بالذات.

متحدثًا الطبيب وقال:

– سيبك بقى من عيد الميلاد وترتيبه دلوقتي وقولي مالك؟

– مفيش.

كلمة مفيش، اللي بتطلع بكسرة وقلة حيلة، بيكون وراها ألم كبير أوي وإحساس بالخذلان، إحنا بنقول مفيش من كتر الوجع مش من قلة الكلام.

– هتصدقني لو قلتلك إني حبيت بنت شوفتها 3 مرات بس!

– اه هصدقك، الحُب مش بالعدد يا حاتم ولا بالوقت، أعرف قصة ولد على السوشيال ميديا، شاف بنت الجيران 3 مرات بس مش دي أغرب من حالتك!

الأغرب بقى إنه في التلات مرات دول حس تجاها إن دي البنت فعلًا اللي حس نفسه معاها، بس ده مسبهاش، ده ارتبط بيها ومن كلامه عنها بيعيش أبهى صور الحُب.

– المشكلة إني مش عارف أوصلها.

– لو حبيتها بجد وكلمت ربنا عنها، أكيد هتشوفها، مستحيل ربنا يلاقي قلبك بيتمنى وبيسعى للحلال ويسيب الوجع ياكله كده، ولأن ربنا رب القلب، أكيد مش هيسيب للخذلان والكسرة سكة يدخلوا بيها قلبك، إلَّا لو انت مشيت في سكة تغضبه واستعجلت قدره، ربنا يحب يشوف منك الجهاد والرباط والإصرار على الشيء وبس، وقتها هتلاقي رد فعلك من الفرحة سجدة، وقتها الكريم هيتدخل، ولك أن تتخيل.

– أنا خايف أقابلها أخسرها؟

– طب ما انت في بُعدك خسران، خسران نفسك وروحك وملامحك المطفية وبهتانة، خسران مشاعرك وقلبك وحُبك، خسران كل آليات الحياة، بطل خوف عشان تعرف تعيش.

– شوف، الواحد مننا بعد ما بيخسر علاقة بجد، بيتكسر جواه حاجز مُعين، وقتها بيُصاب بحالة من الخوف والقلق والفقد، تفكيرك كله لو حد حاول يقرب منك، لسان حالك بيقول يا ترى هيكون قد الثقة والمشاعر اللي هياخدها، ولَّا هيكون زي غيره؟!

وقتها مفيش مسلك ولا مدخل لعلاقة جديدة غير لو كانت مُبرهنة بفعل و إثبات، محتاج تطمن إنه هيفضل بجد، وفي نفس اللحظة بتفكر إن مين قال هَفضل وفضل!

وتلاقي نفسك في وسط السكة تايه ومتلغبط، و اقف في مرحلة المنتصف المميت، وده أبشع شعور ممكن تحسه في حياتك.

عشان كده لازم تكون حريص في علاقاتك، المشاعر مش زي

الجروح العادية.

أي حتة في جسمك ممكن تتصاب وتنزف دم سهل إنها تتعالج، لكن تنزف وجع وكسرة لا بتتلم ولا بتتمسك، صعب، فخليك حريص.

– ادعيلي يا دكتور، هو فيه ولد بيوصي باباه يدعيله!

نرجع بقى لعيد الميلاد هههههه، شوف اليوم ده هيكون 20 مارس لسه، هسيبك تختار المكان وترتب الأفكار كويس كده.

– اه بس هحتاج أقعد مع حد على الأقل أفهم دماغه بتفكر في إيه بشكل عام.

– بسيطة دي شوف متاح إمتى و أنا هبعتلك صاحبة الفكرة نفسها.

– خلاص تمام، أنا هوصل المكتب وهديلك تليفون على طول.

***

الساعة السابعة مساءً:

تتغيب سلمى عن العمل، كونها تشعر بالخجل من ما حدث، ولكن...

إنَّ المُحب إذا حب فعل كل شيء لم يخطر بباله أن يفعله في يوم ما، يكتسب المزيد من الثقة، من الجراءة، من القوة والتحمل، هكذا يفعل الحُب، فسحقًا لمَن وصف الحُب بأنه ضعف، لأنه بعيد كل البُعد عن هذا الحُب.

اقتنى هشام بوكية ورد، ثم ذهب لسلمى في منزلها، وقف أمام الباب بشعور الضيف، ثم وضع إبهامه على الجرس دون انقطاع، وكأنه في حالة من الطوارئ، سرعان ما انفرج الباب، ليكن أمامه، سيدة مُسدل شعرها على ساعديها، تملئ الابتسامة ملامحها، ليس عدلًا أن يعرفك شخص و أنت أمامه لا تعرفه تشعر بالخجل حينها، ثوانٍ من الصمت دون صوت، عيناها تجوب على كل ورقة من ورقات الورد، أما هو، ظلَّ عاجزًا عن النطق، حتى سمع صوتها وهي تقول:

– مين يا كاترين؟

– (مبتسمة) هشام يا ست البنات.

– شعَر حينها بأن صوتها كاد يشبه طوق النجاة لطفل كان يجتازه الموج حتى كاد أن يودي بحياته، ثم انفرج الباب انفراجة أخرى، ليتسع المرور مشيرة له بالدخول، فجلس وجلست و أتت، فزُينت الدنيا ومُلأت بالألوان.

لم يقل هشام عند خطبتها مثل الجميع، بل نظر إليها وقال:

– إنَّ من دواعي سروري قبولي لكِ، فيشرفني أن يكن اسمك مقرونًا باسمي، وأن تزداد حياتي بكِ، منتميًا إلى عالمك، كونك أنتِ.

احمر خدها وكأنه نسخه تُشبه ذاك الورد المطروح أمامها، فقالت صديقتها:

– طيب احنا نفكر.

(مقاطعة الكلام بسرعة البرق).

– لأ على فكرة أنا فكرت.

– فما كان من صديقتها إلَّا أن تزين المكان بصوتها كالمعتاد عند السيدات في تلك المو اقف.

قائلًا هو:

– طيب أنا هحدد الفرح وهخليه مفاجأة ليكي؟

– لأ أنا لسة محتاجة حاجات كتير أجهزها.

– أنا مش محتاج غيرك على فكرة، وبعدين أنا حبيتك من غير أي حاجة تانية.

– أصل.

– مفيش الكلام ده، من اللحظة دي أنا هديرلك حياتك، وهعوضك عن إنك تشيلي حمل أو هَم تاني، بس انتِ اسمحيلي، و أنا والله ما اتأخر.

– ثم خرج متجهًا إلى منزل الطبيب، دون موعد دون إتصال، فهكذا يكن الشغف ويفعل بصاحبه ما لم يُدركه، وإذ فجأة يجد نفسه أمام الباب، ثم يطرقه بدلًا من أن يستعمل الجرس!

– همَّ الطبيب في عُجالة تجاه الباب، فرأى من خلفه هشام، فبدأ يرتبك، وسرعان ما انفرج الباب على جانبيه، ليجد هشام بصوت جنوني قائلًا:

– و افقت و افقت!

– بدأ الطبيب في استرخاء أعصابه، وتمالك نفسه، ثم انفجر في نوبة من الضحك (بعض الناس عند الغضب الشديد يضحكون أتتخيل ذلك؟!) قائلًا:

– يعني يا راجل عشان تبلغني خبرزي ده، تخضني بالشكل ده!

– أنا آسف والله بس أنا فرحان ومبسوط وحاسس إني عايز أنادي بأعلى صوت و أقولها بحبك.

بحبها وحابب أكون معاها من امبارح!

– امبارح هههههه.

– أنا جاهزيدوب هشتري شوية لبس، وهغيربعض الديكورات في البيت، وهجيب العفش على ذوقي أنا و انت عشان أخليه مفاجأة ليها، وهختارالمكان اللي هقضي فيه شهرالعسل و...

– وكده جاهز؟

– بص أنا ممكن معملش أي حاجة ممكن نتجوزبكرة.

– هههههه، أنا عايزك ترتب كل حاجة بهدوء وبعدين سيب الفرح عليا، مش عايززن!

– لا خالص هفكرك في اليوم تلات مرات بس.

– هو علاج!

– أنا كنت جي أبلغك بس إنها و افقت، وهمشي عشان مش هضيع ولا دقيقة تاني.

– ماشي يا عم إتش، القلب لمَّا يدق.

***

خرج كريم ومروة وهُما شابكي الأيدي، كل منهم يتأمل الآخر بنظارته، وكأن الكون يخلو لهما.

عظيمة تلك اللحظات التي نقضيها مع مَن نُحب، فوحده من يُهون علينا، ووحده من نثق فيه لنبوح له بما لا نستطيع أن نبوح به، إن صدق امتلكنا الدنيا وما فيها، وإن خذلنا كُسرنا كسر كل ما في الأرض من تعزية ومواساة لا تستطيع أن تُجبر كسرنا مرةً أُخرى.

فأسوأ من السوء أن يُخذل الإنسان من أقرب الناس إليه الذي سُمي خذلان؛ لأنه يأتي من مكان كُنا نظن أنه هو المأمن الوحيد لنا، والمُتسع عند الضيق، كُنا نأمل ونظن بأنه الركن والكهف الآمن لنا من الشتاء القارس والصيف المفجع، ما ظننَّا يومًا بأنه ممتلئ بتلك الأفاعي، ما ظننَّا يومًا هذا.

دخل كريم يقتني بدلة الفرح الذي يُعد له، وأصر على أنَّ الاختيار الأول والأخير يكن من خلالها، عندما يثق الإنسان فيمَن يُحب، فإنه يجعله يتصرف في حياته كيفما شاء وهو بكامل اليقين والثقة، العامل النفسي يُوَرث الاطمئنان حينها.

اختارت له ما راق لها، وظلَّ ينظر إليها في تأملٍ تام حتى قالت:

– الناس واخدة بالها من نظر اتك على فكرة.

– أنا أصلًا مش شايف غيرك، أنا شايفك كل الناس.

– هو إيه السر في إنك ديمًا مطمن كده؟

– إنك موجودة في حياتي.

– أنا عندي يقين إن مهما كانت الدُنيا ملغبطة، والظروف معاندة جدًا معايا، بكون واثق إنها هتتعدل وهتفرج، مع إني مش شايف بوادر لده، بس فكرة إن لينا رب رحيم في الأول وفي الأخر لا هنهون عليه ولا هيضيعنا لإنه عالم إن ملناش غيره.

***

لا شيء يستطيع أن يُنسيك الفقد، مهما كانت درجة انشغالك، يخطأ كل من ظنَّ بأنه عندما ينشغل ينسى للأبد، يستطيع الإنسان أن ينسى موعدًا أو لقاء أو ما شبه، لكن محال أن ينسى فقد قطعة من لحمه ودمه.

رغم انشغال عصام بأعماله بعدما أصبح ناجحًا في إدارة وتأجير المولدات الكهربائية، وذاع صيته وارتفع اسمه، لكن لم يغب عنهُ ما فقده، فكل ما حوله لا يعوضه ما فقد، من زوجة و ابنة.

هكذا البشر في العموم المطلق، ينظرون إلى ما يمتلكه الأخرون دون معرفة ما يفقده، بكل نرجسية وعدم تصالح، يطمعون فيما تراه أعينهم؛ لأن هؤلاء منعدمي الر أفة والرحمة، هُم يُقدسون المظاهر، ويعتبرون العُملة النقدية الإله الأكبر لهم في الأرض، فكل منهم بمرور الزمن يُبتلى إما بالفقد وإما بعدم الرضا، وحينها لو امتلك الأرض من المشرق إلى المغرب، يكن بداخله هاجس الخوف من الفقر، حتى يصبح بخيل في كل شيء.

هم لا يعلمون بأن الفقر فقر الروح والمشاعر، فقر اللين والرحمة من القلب، ليس فقر المال فقط، في المال تقتني ما شئت، ولكنك لا تستطيع أن تُجبر أحدًا على تقبلك أو حُبك، فتلك الأشياء هِبة الله.

أحيانًا يتذكر زوجته، و ابنته، في كل مَرة يتذكر أحدهم يظل سيء المود أكثر من يومين، كالأسد عندما يأكل الوليمة؛ يأبى أن يأكل أي شيء لعدة أيام، يأبى الدنيا والملكة والسيطرة، لا يشعر بقيمة نفسه إلَّا وهو جائع.

دخل عليه أحد العاملين، ليجد عيناه ممتلئة شديدة اللمعة، لا ينقصها سوى الفيض من الدموع، ليضع إحدى يديه على كتفه ويهزه قليلًا كـ كفيف على آخر يتكئ.

عندما تتبدل الأدوار ويواسيك أفقرهم منصبًا ومالًا، حينها تُدرك بأنه أغناهم إحساسًا وشعورًا ومراعاة، فسحقًا للمال ومحبيه حين ذاك.

قائلًا له:

– هوّن على نفسك يا ريس.

ليجد نفسه يبوح بما لم يبح به منذ سنوات طويلة، ويسرد له القصة حتى نهاية المطاف.

أوقات كتير بنكون محتاجين اللي يسمعنا من غير ما يقاطعنا، محتاجين اللي يلتمس لينا العذر سواء قصرنا أو أخطأنا، إحنا بنكون عارفين إن مفيش في إيده حاجة يقدمها، غير إنه يسمعنا وبس، لكن الفضفضة والعياط مش نكد ولوم، ده بيكون جزء من الحل، على

الأقل بعدها بنرتاح.

– بقولك إيه.

– نعم يا ريس.

– أنا عايز أكبر الصورة دي وأخليها حلوة عشان أحطها هنا في المكتب.

– سهلة دي، طيب أنا عندي فكرة، أنا بشوف بنتي معاها صور ناس كأنها مرسومة وكبيرة وشكلها حلو أوي بتقولي ده العملي بتاع الكلية وكده، إيه رأيك أعرفلك بتعمل ده فين ونعملها، هتبقى حلوة أوي وجميلة.

– اتصل بيها دلوقتي، هنعرف.

قائلًا:

– سبحان الله الراجل اللي بيرسم قريب مننا أوي تقريبًا بعد كام شارع زي ما وصفتلي.

– خلاص خد الصورة واديله اللي يطلبه واديله عنوان المكتب اما يخلصها يبعتها عليه.

***

لم يتبقى على عيد الميلاد سوى أيام بسيطة، ذهبت فريدة إلى مقر الشركة المكلفة بالحفل؛ لترتب الترتيبات النهائية، وعندما وصلت أصابتها الدهشة من جمال المكان وتناسق ألوانه وديكوراته.

مرحبة بها مسئولة الاستقبال، ثم خرج عامل البوفيه يسألها عن مشروبها المُفضل، حتى يتحين لها الوقت وتدخل للمقابلة.

لم يمضِ سوى خمس دقائق من الانتظار وقامت بالدخول، وكانت الصدمة أو الدهشة أو كيفما يحلو لك أن تصف مسماها، صِفها!

نظرة ذهول تجتاح الطرفين، صمت تام، أحدهم يداه ترتعش كعجوز، والآخر يتهته في الكلام كطفل في مقتبل طفولته، أحدهم لا يعرف هل ينصرف أم يبقى والآخر غير قادر على أن يُدير حوارًا.

ظلَّ الارتباك ما يزيد عن دقيقتين، ثم سرعان ما استجمع قواه، وقال بلطفٍ ولين قائلًا:

– اتفضلي يا فندم.

جلست دون كلام، ولكنها تنظر على لوحة مثبته على جدار أمامها، بينما هو في سعادة غارمة، ربما تكن الأفضل له طيلة العمر.

سرعان ما اتفق كل منهم على الترتيبات اللازمة، ثم انصرفت في عُجالة، رافضة استكمال مشروبها، بحجة انشغالها.

خرج بعدها على الفور، متجهًا إلى عيادة الطبيب، حتى وصل، ليشاء القدر مَرة أخرى بجمعهما، إنه القادر يا سادة لا مفر ولا هرب منه، فإن شاء الله جمع قلبين، فاق ترتيبه منطق البشر.

اتصل به وهو خارج مكتبه، فسُمح له بالدخول رغم وجود شخص ما من وجهة نظر الآخرين.

إذا به يجدها، دون تردد، دون خوف، قال:

– على فكرة يا دكتوردي البنت اللي حكيتلك عنها، وقولتلك إني حبيتها.

– و أنا قولتلك إيه وقتها؟

– قولتلي لو حبيتها بجد، هتقابلها تاني، واهو انت يا عم قدامها، دي بنت أخويا على فكرة.

– انت عارف إني حبيتها يا دكتور.

ثم نظر إليها قائلًا:

– والله بحبك يا اسمك إيه!

نظروا إليه ضاحكين بصوت مرتفع.

الحُب حالة صعب توثيقها بالكلام، الحُب شعور وامتنان تجاه اللي بنحس تجاهم الحُب، غيرنا ممكن يشوفنا متهورين في تعبيرنا ده، أو مجانين، أو ناس غريبة في طبعها، لكن لا بأس، طبيعي محدش هيقدر اللي انت فيه طالما معش نفس الحالة والشعور.

حتى وقت الوجع اللي بيقولك معلش، مبيكونش عارف النار والوجع اللي طال قلبك؛ لأنه بيكون شايف الموضوع من وجه نظره الشخصية ميستهلش كل اللي بتعمله ده، طبع البشر بشكل عام.

ثم خرج، وعاد مَرة أخرى إلى شركته.

وقالت فريدة:

– ده أكيد مجنون يا عمو.

– على فكرة حاتم حبك فعلًا، الحُب ملهوش مقياس بوقت ولا تواريخ ولا تعاملات، ده حاجة بتيجي فجأة بدون مقدمات، شعور بنحسه في لحظة تجاه شخص ما مبيتغيرش، من كام يوم كان بيكلمني عن بنت شافها تلات مرات بس، اللي هو انتِ.

كان بيحكيلي عنها كأن الكون مفيهوش غيرها، فعلًا الحُب تأثيره يشبه شخص مدمن مهما تناسى بيفضل يحن ولو بالتمني والكلام.

– أيوه بس أنا معرفوش ومعرفش عنه حاجة، أنا أصلًا افتكرته بالعافية.

– حقك طبعًا، وده يحَليكي مش يعيبك، حاتم اللي شوفتيه زمان غير دلوقتي خالص، غير الشخصية غير الأهداف غير النجاح، تقدري تقولي كده دي نسخة مطورة منه، هكلم سامر أنا في الموضوع ده، أعتقد إن فيه قبول منك.

– لأ طبعًا.

– يعني نرفضه؟

– برضو لأ.

ثم ذهبت هي الأخرى، واستكمل الطبيب عمله، ثم ذهب ليلًا، ليتناقش في تلك الخطبة، كان يدافع عنه وكأنه ابن شرعي له، حتى استقرت العائلة أن تُقام خطبتهم في اليوم التالي، ثم أبلغ الطبيب

حاتم ليُعد نفسه.

كم هي جميلة تلك المفاجآت التي تجمعنا بمَن نحب، كم هي جميلة تلك الشخصيات التي تختصر علينا الوقت والمسافات.

هكذا يكن الحُب، طريقه معروف، خطبة شرعية، وخاتم وإعلان يشهده أفراد العائلة بعد الله، ما دون ذلك فهو بعيد كل البعد عن الحُب المنزه عن الابتذال والغش والوجع.

إن خالفت قانون الله في الأرض وتقاليده، فسوف تُبتلى بالحرمان بمن خالفت من أجله.

***

إذا بباب العجوز يُطرق، ليتجه نحوه، فيجد رجلًا يسأله عن رسوم لوحة وعن تكاليفها في عُجالة، ليرد العجوز:

– أنا بطلت رسم من فترة.

– طيب دي صورة بنت ويمكن آخر حاجة باقية لوالدها!

– مهما قست الدنيا لن تجد أطيب وأحن عليك من الأجداد.

بصوت كله لين ورحمة قائلًا:

– هات الصورة.

في تلك اللحظة شعر العجوز برعشة ولاحظ ذلك الرجل، في تلك اللحظة لمعت عينه وتهته بكلام غير مفهوم.

– طيب هتتكلف كام وهتخلص في قد إيه؟

– الصورة دي هدية، بعد أسبوع تعالى في نفس التوقيت.

ثم انصرف الرجل وأغلق الباب، واتجه في نفس اللحظة إلى الركن الآمن الذي طالما كان مغلقًا ولم يُفتح سوى مَرة أو مرتين، ذهب إلى تلك الركن المنسي الذي خبأه كل ما يحويه التراب وخيوط العنكبوت، ليمد يداه ويستخرج صورة تلك الجميلة، ابنة الأخت، وصاحبة الصورة يتأمل ويقول بصوت داخلي:

– طالما كنت أنتظر هذا الوقت، كنت أخشى الموت قبل المجيئ ولكن وعد الله حق، إذا تمنى العبد من ربه لم ولن يُخذله قط، ثم قام بتغليف الصورة تمامًا وخرج وأغلق الباب مَرة أخرى.

***

بعد مرور ثلاثة أيام، السابعة مساءً، عيد ميلاد شروق.

حضر الجميع وحضر كل مَن له صِلة بالطبيب، وهُم في أبهى صور الأناقة والجمال، الورود تُزين كل ركن وكأنك في موسم الربيع، حيث تزهر الورود والأشجار، تنظر إلى أعلى فتجد الورق يتراقص عبر نسمات الهواء، وتنظر إلى الأرض فترى الأرض مُخبأة بأوراق حان لها أن تسقط، وتشعر حينها كأنك في ركنٍ آخر من هذا الكوكب، التف الجميع بجوار شروق، حتى حان موعد إطفاء الشموع، الأكتف ملتصقة بعضها ببعض، الجميع كاد أن يسمع أصوات النفَس لبعضهم البعض، نظرات تجاوب وفرحة عارمة، تقتصر على تلك الدائرة، هم الآن خارج تقاليد المجرة بأكملها، قبل انطلاق لحظة الإطفاء.

قال الطبيب:

– فيه كلمتين محتاج أقولهم دلوقتي، الحقيقة مفيش أنسب من اللحظة اللي كُلنا فيها اتجمعنا.

أنا مش هقول بعتبركم أولادي كلكم، لأني بالفعل بتعامل معاكم على المبدأ ده، و انتوا شُطار أوي الحقيقة وحسستوني بالشعور ده و أنا معاكم، أنا بحبكم جدًا يا ولاد، ومن طبع أي أب وفطرته، إنه بيستنى اللحظة اللي ابنه أو بنته فيها بيسلمها لصاحب نصيبها وتاجها وسندها.

أنا حاسس إنكم طرح حُب وفيكم من بعض، حاسس إنكم جناحات طارحة من الحُب، وبيوت هيكون رأس مالها الوِد والحنين، وطرحكم هيكون جميل شبه الورد ده، وحياتكم هتكون برضا ربنا بمثابة اللحظة دي.

اسمحولي أقولكم، أنا حددت فرحكم، هيكون بعد شهر من النهاردة، مفيش أعذار مفيش تأخير، أنا صحيح ربنا ما اردش إني أخلف، لكن ربنا عوضني بيكم كلكم، وحسسني شعور الأبوة تجاهكم يمكن اللي باقي مش قد اللي فات، المهم إن فرحكم مسئوليتي الخاصة، وهيكون في نفس المكان.

ثم أطفأ الشموع الجميع، وبدأوا يضحكون، وكعادتهم يخرجون عن روتين أي شيء معروف، فاصتف الجميع خلف بعضهم ثم واحد تلو الآخر، يذهب وينحني شيء ما ويُقبل جبين شروق ويمر، تلك اللحظات تُحفر في القلب، ليت التاريخ قادرًا على حملها وتوثيقها للأبد.

بعد أسبوع من إعلان وتحديد موعد الفرح.

❁❁❁

البدايات (The Beginnings)

كطبيعة البشر لهفة البدايات ولعنتها، جميعًا يخشى تلك المرحلة، فهي وهم بالكامل، ومسلكًا للخلاف والبُعد، أسوأ ما يُصيب الإنسان مِنّا أن يعتاد على أمرًا، ويكن هذا الأمر مصطنعًا، وغاية للإبهار والوصول فقط

في بداية أي ارتباط ما بين اتنين، لابد أن يتخلى كل منهم عن أي شيء الغرض منه إبهار الطرف التاني، يجب أن يكون التصرف بكل أريحية حتى يتعرف أحدهم على طباع الآخر دون عناء.

لمَّا يكون السائد أن يعشق الجميع البدايات؛ لأنها تكن مُبالغة في العاطفة، في الاهتمام والشعور، يكون كل شيء مبالغ فيه، ويظهر طرف بصورة مثالية، حتى يتعلق الطرف الآخر ويشعر بأن ذلك هو الحُب الذي طالما ظلَّ يبحث عنه.

ثم بعد ذلك يظهر المعدن الحقيقي والوجه الآخر، ويسقط الماسك الخاص به، فتتغير المعاملة، ويقل الشغف، وتدريجيًا يبدأ الإهمال والخلاف، حينها يكره الجميع ما يُسمى بالبدايات بل بالعلاقات، واصفًا إياها باللعنة.

أعلن الطبيب عن محاضرة داخل جامعة القاهرة تحمل عنوان:

«وحدك».

والمقرر أن تُقام على المسرح التاريخي للجامعة، يوم الأحد المو افق 25 أبريل من الشهر القادم، الجديربالذكربأن هذه المحاضر قبل موعد الفرح بخمس أيام فقط.

بدأ الترويج ولمجرد الإعلان عن اسم الطبيب، في خلال أيام بسيطة نفذت تذاكر الدخول الأساسية، التي طُرح منها ما يفوق الفان وسبع مئة تذكرة من أصل ثلاث آلاف مقعد.

الناس فاكرة إن فترة الخطوبة دلع، ميعرفوش إن دي أصعب مرحلة في العلاقة كلها.

بعد الارتباط مباشرةً، بتبدأ المشاكل، ويبدأ سوء المُود النفسي في التكهن، من الطبيعي أن تظهر الاختلافات في الآراء والطِباع لأنها المَرة الأُولى في المعاملة، ولكل شخص وجهة نظر وتصوّر وطباع مختلفة، كل واحد عنده أفكاره الخاصة اللي كِبربيها وعليها، مش من السهل إنه يتغيربين يوم وليلة لمجرد إن دخل حياته شخص جديد، لأن مش بالضرورة يكون هو اللي صح.

هتحصل مشاكل وده وارد، لكن الطبيعي إنها مع الوقت بتقل، ونِسب الخلاف بتقل، يعني لازم كل واحد يحس إن بيحصل تغييرحتى لو بنسب بسيطة، طبيعة العلاقات مش بينفع إنها تتقنن ولا يتحدد ليها وقت، لكن لو بيحصل العكس وطول الوقت في صراع مستمر، لطفًا اقف لحد كده، واعرف إنك ماشي للغرق، وعمّال تبحر بلا هدف، بالتدريج الشط هيغيب عنك، وهتلاقي نفسك عمّال تتخبط وحدك، لحد ما تموت بالبطيء.

تظهر موجة من الغضب والحُزن، حينها يستدعي الأمر على طرف من طرفي العلاقة إخفاق الشراع والتحكم في قمرة القيادة وزمام الأمور بحكمة لا بتهور، حتى يصلا إلى نقطة إتفاق وهدوء وتفاهم، لكن سرعان ما يسبق الغضب زمام الأمور، فتتحول العلاقة إلى ساحة من الصراع والضجر والضجيج المستمر، فيشعر كلًا منهم بالعبء ويظنوا بأنهم أمام أسوأ تجربة واختيارواختبار.

فيقرروا الرحيل والانفصال، ثم بعد ذلك، يقسمون للبشر بأن الارتباط والحُب والعاطفة هم أسوأ شيء عرفه الإنسان على مر التاريخ!

كيف يصفون نزعة الله بالحُب بأنها سيئة! كيف؟

تأثير التكنولوجيا:

إحدى وسائل السوشيال ميديا مثل الـ Whats App، من أسرع الطرق لإنهاء العلاقات، كل شيء يخلو من نظرة العين ونبرة الصوت فهو يعجز عن توثيق الحالة الحقيقة للتعبير عن الشعور، فالكلام وحده لا يستطيع فعل ذلك، أثناء اختيار هشام وسلمى بعض الديكورات الخاصة بالشقة، وتبادل الصور عبر تطبيق الـWhats App اختلفت وجهات النظرولم تكن المَرة الأولى.

فهُم في حالة من الضغط المستمر، لكن لا أحدًا منهم يُدرك ذلك، حتى وصل بهم الحال إلى إنهاء الشات وخروج أحدهم دون علم الآخر، وسرعان ما بدأت سلمى بالإتصال بصديقة عمرها «كاترين» وهي في شدة غضبها، وتشعر بأنها أساءت الاختيار.

في تلك اللحظات كان هشام يحاول الإتصال بها، لكنها كانت مشغولة، استمرت المكالمة أكثر من 40 دقيقة، في خلالها حاول هشام الإتصال أكثر من مَرة بشكل مُبالغ فيه، ويجد الهاتف مشغولًا، ظنَّ السوء، وأدرك بأنه شخص غير مرغوب فيه، لأن في حياتها شخص آخر، هكذا بعض البشر، يشخصون ويحكمون من تلقاء أنفسهم.

إذا خان شخص، ظنَّ الجميع بأنه خائن، فيعاقبه الله بنفس الذنب دون أن يُذنب الآخر.

في لحظات غضب، أخذ القرار بالانفصال، وتلك اللحظة التي يندم بعدها أي إنسان، فأرسل إليها رسالة مختصرة، تُعبر عن عدم رغبته في الاستمرار، وقال كل شيء قسمة ونصيب.

فبعدما أنهت المكالمة، قرأت الرسالة دون رد، لأنها لم تتوقع ذلك.

أحيانًا نُدرك بأن عدم الرد مو افقة.

على جانب آخر، حاتم دائمًا يبوح بمشاعره، بينما فريدة تستقبل تلك المشاعر كأمر عادي!

فيه Category من البنات، ودي أصعب فئة لكن أفضلهم، مش سهل خالص إنها ترد على العاطفة، بكلام وخلاص، يعني هي بتفضل تسمع منك عادي وبتحترم مشاعرك، لكن انت مش هتمسع منها حرف غير لو هي متأكدة من ده كويس جدًا جواها.

للأسف محدش بيتحمل مساحة الصبر الخاصة بهم كتير، عشان يتفهموا مشاعرهم قبل ما يعبروا عنها، لكن ده مش بيغير

نظرتهم عمومًا، الفئة دي نقطة ضعفها العقل والمنطق والإقتناع، مش العاطفة زي ما انت فاهم.

الناس دي محتاجة لشخص متفهم، مش محتاجين لكلمة بحبك والسلام، ولا حد يجبرهم على إنهم يعبروا عن حبهم، محتاجين أفعال، لأن الكلام مبيجبش نتيجة معاهم، وقتها صدقني هتتحب الحُب اللي كنت بتحلم بيه لو عرفت تثبت حبك ليهم انت الأول، الناس دي مشاعرها غالية عليها أوي، فمبتروحش غير للي يتعب عشانها.

ومن هنا حاتم مقدرش يتفهم فريدة ويصبر عليها عشان تتأكد من مشاعرها، واتهمها بعدم الحُب، وده حل ناس كتير على فكرة، راجعوا نفسكم و انتم ماسكين الكتاب ده دلوقتي، خدوني حِجة لحل الخلاف، بس من غير غلط فيا.

رغم إن فريدة جميلة جدًا في المظهر، وسهل تتحب من اي حد يشوفها، لكن عمومًا أي بنت تحب إنها تكون جميلة، لكن ده آخر سبب تحب إنها تتحب عشانه، يوميًا مشاكل، ومحاولة حاتم لاقتحام حياتها وإجبارها على مبادلة المشاعر، كان مردوده سلبي، لدرجة إنها اختارت البُعد.

صحيح البُعد بيوجع، لكن أفضل مليون مَرة من علاقة كُلها خناق وشك وعدم تقدير.

متصلة بوالدها، مُعلنة رغبتها الكاملة في إنهاء هذة العلاقة.

رغم حُب حاتم لفريدة لكن وقع في مشكلة بيقع فيها أي رجل، مش صح إن يكون فيه خلاف ما بينك وما بين شريك حياتك بشكل

عام، وتلاقيه زعلان ومضايق، وتقول أنا هسيبه لحد ما يروق!

وقتها هيستغنى عنك، ومهما عملت هتكون مش موجود بالنسباله، اللي يقدر يهدي نفسه بنفسه، ويتحمل غضبه بنفسه، ويواجه مشاكله بذاته، أكيد مش هيكون محتاجك في حياته تاني، أي بنت بصفة عامة محتاجة لمَّا تقول أنا همشي وهعبد، محتاجة تسمع اللي يقولها أنا عمري ما هسيبك وهفضل متبت فيكي.

اللي بيحب حد مش بيتحمل الظروف وبس، ده بينحت في الصخر عشان يفضل جنبه، ويكمل معاه للآخر، اللي ملوش آخر.

***

حان وقت استلام الصورة، وذهب الرجل لمنزل العجوز، ظلَّ يطرق الباب لم يُجبه أحد، كاد أن يختلع الباب من شدة الطرق، ولكن لا حياة لمن تنادي.

في الغالب لا أحد يلتمس عذرًا للآخر، ويصفه بما ليس فيه، العجوز يرقد بأحد المستشفيات العامة، ولا يرافقه سوى ابنة الأخت، إثر ارتفاع حاد للضغط، نُقل على أثره المستشفى.

أصبح كريم ومروة في حالة من التفاهم المُريح الذي نتج عنه علاقة مبهرة.

التفاهم أهم من أي شيء، أهم من الحُب ذاته، التفاهم هو الذي يصنع الجوهر الحقيقي لأي علاقة أيًا كان مسماها وتصنيفها.

لكن دوام الحال من المحال، أحيانًا لا يتفهم الشاب مدى التغيرات الفسيولوجية التي تمر بها الفتاة، لا يُدرك حجم ارتفاع

وانخفاض ضغط الدم عندها، لا يدرك حجم الصداع والأرق، والنزف المستمر لعدة أيام، كل هذا قادر على أن يُغير حياة الإنسان رأسًا على عقب، هل من مدرك يُدرك تلك العاصفة؟!

بطبيعة الحال تكون البنت في أعلى مراحل العصبية وعدم الاتزان النفسي والتحكم في ردودها عندما تقع تحت طائلة التغير الهيرموني (الدورة الشهرية) إن لم يتفهم الطرف الآخر ما تمر به، فسوف ينجرف أحدهم إلى شط الخلاف الحاد مهما كانت قوة العلاقة في ذلك التوقيت.

لم يتفهم كريم ذلك، لم تنتهي العلاقة، ولكن لم تكن الأمور بينهم على ما يرام.

مما دفع مروة للتفكير مَرة أخري في إنهاء تلك العلاقة.

***

15 أبريل جامعة القاهرة:

لم تكن هذه المحاضرة عادية من حيث الترتيب أو المضمون، تدخل الطبيب في طريقة تنظيم المحاضرة، لأنها الأكبر والأهم له، بعدما استمر أكثر من عشرة أيام في عزلة عن العالَم حتى أنه أبلغ عيادته بأنه خارج مصر، وأغلق هاتفه، وأصبح مُنعزلًا عن كل ما يحدث حوله.

طلب من مهندس إضاءة القاعة بشكل شخصي، عندما يغلق باب القاعة، تطفىء معه الأنوار ولا يبقي سوى بؤرة الضوء المثبتة عليه.

دخل الجميع القاعة، وهم رهن البدء، لكن الانتظار طال أكثر من نصف ساعة، ولم يأتي، حتى بدأ البعض يشعر بالملل، على حين غفلة، دخل الطبيب وظهر تحت بؤرة الضوء، تعالت الصيحات والهتافات والتصفيق، لدرجة جعلت من بالخارج يشعر بأن بالدخل شيء كارثي من الضجيج!

إنه المشهد المُفضل، لدى أي شخص يعتلي منصة من منصات العِلم.

بصوته العبقري يقول:

الحقيقة أنا مش هقدر أوصف شعوري تجاهكم في اللحظة دي، وقد إيه أنا ممتن ومُقدر شعوركم تجاهي، وطبعًا بعتذر على التأخير، بس انتوا أكيد عارفين إن أي حد مهم بيحب يتأخر، مبتسمًا.

فتبسم الجميع وصفق مَرة أُخرى بكل رحب وسرور.

حاول أن يقطع التصفيق بالكلام، لكنه فشل، كانت المحبة أكبر وأكثر، فانتظر

قائلًا بعدها:

– أنا حاسس إنكم بتعقبوني مش بتحبوني كده، فانهالت الصيحات للمَرة الثالثة ثم بعدها طلب من الحضور بكل لطف ولين المحافظة على الهدوء حتى تبدأ المحاضرة.

فيه تنويه أحب أقوله قبل ما أبدأ، المحاضرة دي مش هتكون بتقتصر على إني أتكلم و انتم تسمعوا بس، أنا هكون ممتن لو أي حد فيكم حب يقول شيء جواه، هيتفضل يبلغ حد من المنظمين اللي

جنبكم في كل مكان، وهمَ هيوصلوكم.

بنبرته العبقرية قائلًا: «وحدك».

هنبدأ بـ...

❁❁❁

جنون العظمة (Megalomania)

فيه ناس عندها megalomania أو جنون العظمة.

النوع ده من الناس بيشوفوا آراء غيرهم ولا حاجة، ديمًا عندهم استمتاع في إنهم يحجروا على غيرهم ويطلعوهم غلطانين ميعرفوش حاجة، ديمًا يقللوا من اللي بيتعامل معاهم بشكل مستمر ولو على شكل هزار، عندهم تصور أبدي إنهم صح، إنهم أفضل من غيرهم، إنهم كتير على كل الناس، إنهم مبيغلطوش، إنهم حلوين ومبهجين فوق الطبيعي، وده الحقيقة نوع خطير من المرض، اللي بيخليهم يكونوا عبارة عن شيء مبغوض بين الناس وغير مرحب بيهم وبسيرتهم في غيابهم كمان.

ولو حصل وارتبطوا بشخص، الحقيقة أنا مش بكون عارف الشخص ده عمل إيه وحش في حياته، عشان يكون نصيبه مع شخص زي ده، أو جايز يكون إيمانه عالي، فيكون ابتلاؤه في علاقة مرهقة لدرجة حادة من النوع ده، عمومًا الناس دي بحكم العلم والأبحاث لا يجوز معهم النقاش و إثبات الرأى لأنك من البداية في عنيهم ولا حاجة.

انت اسمع وخلاص وبلاش تدخل في دايرة نقاش مع شخص هو غير مؤهل للنقاش، لأنك لو استمريت هتنتهي حقيقةً وهتروح كل طاقتك، إما البُعد و إما التجاهل.

هحطلكم صورة بتبين قد إيه الشخص المريض بجنون العظمة بيتصور نفسه، وقد إيه بيستصغر اللي قدامه.

وفيه ناس بتلاقي راحتها في العُزلة والبعد عن الناس، وده نتيجة إنهم اتعرضوا لضغوط قاسية في حياتهم سواء وهمَ لسة صغيرين أو مروا بعلاقة عاشوا فيها أبشع لحظات عُمرها، فبيكون البُعد هو الأمثل والأمان ليهم، على حد تصورهم.

قمة الخذلان والكسرة إنك تختار بكامل إرادتك البُعد بعد التعود عشان ترتاح!

ربنا لمَّا خلق الإنسان خلقه رحيم، وأوجد الرحمة في كل تفاصيل حياته ومعاملته بشتى الطرق والمفاهيم، أكيد مفيش إنسان سوي يقدر يعيش ولو لحظة بدون رحمه!

كتير مننا بيسأل نفسه، ليه بنراعي مشاعر ناس، مش بتراعي هي مشاعرنا؟

ليه ديمًا نسامح فيفتكروا، إننا فعلًا غلطانين، ليه لمَّا نفوّت ونعدي على قبول إن حالهم هيتصلح، يتهمونا بالبرود؟!

الناس عمومًا مش بتزعل من الفعل، لأ دول بيزعلوا من رد الفعل، متخيل، وده ما هو إلَّا نقص فيهم!

أوقات كتير بنكون محتاجين نراجع نفسنا، لأن الكون مش كله

سيء أوي كده.

أكيد فيه ناس حبتنا بجد، لكن إحنا اللي معرفناش نحافظ على الحُب والوِد ده، معرفناش نتفهم طريقة تفكيرهم، معرفناش نحترم مشاعرهم تجاهنا، فضّلنا ناس عليهم مع إنهم فضّلونا عن الكل، اهتموا بينا وبتفاصيلنا، فأهملنا فيهم وحسسناهم بأنهم ولا حاجة!

ولأن الفئة دي أغلى حاجة عندها كرامتها، أغلى من الحُب والمشاعر والحياة ذاتها، فكان طبيعي يمشوا ونخسرهم إحنا، بس بيمشوا وفي قلبهم وجع وكسرة خاطر ونِفس كل فلسفة الأرض متعلجهاش.

الناس دي الاعتذار ليهم يكفيهم لأن قلوبهم سوية ومش بيشيلوا جواهم، الاعتذار عندهم قوة وبيعتبروا التمسك هو اللي بينبت الشغف فيهم من تاني، أكيد كل واحد فينا عارف كويس، هو مقصر مع اللي معاه ولا لأ.

المشكلة إن فيه ناس عارفة إنها مقصرة وبتكابر، عندهم الاعتذار كأنه جُرم كبير وذنب، كأنه ضعف.

يا جماعة الحُب ده نزعة ربنا في الكون مش مجرد كلام بيتقال، بقى مقرون بهدايا وخروجات، الحُب أسمى وأعظم من إنه يكون شيء سهل ومتاح بالشكل ده، مش معقول يعني البنت تفتح أي أبليكيشن على موبايلها، تلاقي خمسة أو ستة كل واحد باعتلها يقولها بحبك، و انتي الوحيدة اللي طول عمري بدور عليها، والإسطوانة المشروخة دي.

❁❁❁

الحُب من بابه (Love is at his door)

الحُب من بابه واضح، وطريقه نور مش ضلمة، الناس في الجاهلية مكنش عندهم أوبشن الكدب متخيل، مع إنهم كان إلهم الأعظم لا بيسمع ولا بيتكلم ولا بيحي ولا بيميت، بيعبدوا شيء من العدم، حجر، ومع ذلك كان عندهم طقوس الرجولة والشهامة، يعني مكنش ينفع حد يدخل بيت مفيهوش راجل، مع إن مكنش فيه إسلام وقتها بينظم ده.

الفطرة يا سادة اللي ربنا خلقنا بيها، سابقة كل قوانين الكون، مكنش ينفع وقتها حد قلبه يميل لحد فيوقفه في الطريق ويعَبر عن ده، مش من شيم الرجال عندهم كان بيروح البيت من بابه!

طب إيه، نرجع للجاهلية عشان نحترم مشاعر بعض، وخصوصية بعض، وحرية بعض، مش آن الآون نتفهم ده كويس؟

أي علاقة هتبدأ بالحرام مش هتدوم ولو دامت ربنا هيكون نزع منها البركة وده عقابه أكبر من الحرمان.

عشان متتعقبوش ببعض، فيما بعد، ادخلوا البيوت من أبوابها واعلنوا عن حبكم.

أكتر من 90% من المشاكل اللي يتؤدي لفشل أي علاقة و أقصد تحديدًا في مرحلة الخطوبة، إن بيحصل بينهم تجاوز، أيًا كان نوع التجاوز ده، اللي ياخد حاجة مش من حقه ولا في وقتها المناسب، طبيعي إنه يتعاقب بحرمانها للأبد.

أنا محتاج من كل واحد فيكم دلوقتي، إنه يكون عنده شجاعة

أدبية على الأقل ما بينه وبين نفسه تجاه اللي قصر معاهم وأهمل فيهم، وحاول يتجاوز في حقهم، مش عيب إنك تروح لحد حبك و انت غلطان فيه، وتقوله آسف حقك عليا، وتعترف بنفسك على نفسك، مش عيب والله، العيب إنك تستكبر.

اتصالحوا وارجعوا لبعض، متستنوش الناس تغيب عنكم ويروحوا منكم وبعدين تعترفوا بتقصيركم تجاههم وبحبكم ليهم، لو لسه فيه باب واحد للرجوع ارجعوا، البُعد بيقسي، وبينهي المَودة بينكم بالتدريج، مهما كانت قوتها.

❁❁❁

الاعتر افات (Confessions)

سرعان ما أبلغ التنظيم الطبيب بأن أحد الحضور ترغب في طرح اعتذار.

فاصطحبها أحد المنظمين إلى الاستيدج، علمًا بأنها غير مرئية للجمهور لأن بؤرة النور الوحيدة تقع على الطبيب، جلست في ركن على الاستيدج، وطلب منها الطبيب أن تتحدث دون الإفصاح عن هويتها، بعدما طلب من مهندس الصوت، تغيير نبرة الصوت بالتأثيرات.

فقالت:

– أنا الحقيقة هِنا أنا وماما، ومعرفش خطيبي هِنا ولا لأ، بس باختصار شديد أوي عشان وقت الحضور، أنا قررت إني هعتذر له، إحنا علاقتنا فيها تفاهم معظم الوقت وهادية، مشاكلها عادية يعني، لكن للأسف هو مش واخد باله بس من التغيير المودي بسبب

الهرمونات اللي بتمر بيها أي بنت بصفة عامة أكيد فاهمين أنا أقصد أقول إيه، وده طبعًا بيخلينا عصبيين جدًا ومعندناش حيل للكلام والمناهده؛ لأن الوجع العضوي والنفسي وقتها بيكون جامد أوي.

بس حسيت و أنا بسمع كلام حضرتك، إن فعلًا واجبي ألتمس ليه عذر، حاجة هو عمره ما جربها ولا هتكون عنده لأن دي فطرة ربنا في الخلق كوني أنا بنت وهو راجل، أنا عارفة إنهُ بيحبني جدًا، والحقيقة أنا مش مكسوفة إني أقول إني بحبه أضعاف أضعاف حبه، و أنا فعلًا بعد إنتهاء المحاضرة هروح لحد عنده واعتذر له، ليه أستنى لمَّا كل حاجة تروح وبعدين أقول يارتني.

الواحدة مننا مش ديمًا هتلاقي حد يفهمها قبل ما يحبها كتير، أنا حسيت إني عايزة أقول اللي جوايا واعترف بيه، لأن كان عندي إحساس وحش أوي فمحبش حد يحسه.

فطلب منها الطبيب الانتظار في مقعدها على الاستيدج.

شخص آخر، يبدي رغبته في الحديث، فصحبه التنظيم إلى الجانب الموازي، بعد موافقة الطبيب، حينها شعر الطبيب بأن ما قاله كان قد أصاب الوجع، وأن الكثير أراد التغيير.

أصبح الأمر طبيعي في عدم الإفصاح عن الهوية، وتغيير نبرة الصوت، وعدم رؤية المتحدث حفاظًا على الخصوصية المطلقة.

فسرعان ما بدأ الشاب في الكلام، وهو يقول:

أنا حبيتها بطريقة مختلفة، ومعتقدش إني ممكن أستغنى عنها، أنا حسيت بقيمتها في البُعد، لكن للأسف أنا مشيت وبعدت وقت

غضبي، أنا دلوقتي بقولكم وبقول لنفسي، محدش ياخد قرار وقت الغضب؛ لأن فعلًا مش سهل حد يتقبلك بكل ما فيك.

صحيح محدش فينا كامل، لكن اللي بيحب حد مش بيشوفه ناقص حاجة.

و أنا متأكد إنها حبتني، زي ما أنا بعشق تفاصيلها، أنا عندي استعداد لو سمحولي أظهر في بؤرة الضوء واعتذرلها قدامكم، لأ قدام العالَم كله، و اقولها إديني فرصة لإن اللي جو ايا ليكي ميستهلش يموت والله، حاسس بالغربة في غيابك، وحسيت بإنك فعلًا مالية عليا حياتي، أنا بعتذرلك قدام الناس إنك تقبليني لأن حقيقي اللي بينا يستاهل يكبر ونقدره أكتر من كده، أنا آسف ليكي.

ثم خرج آخر واعتلى الاستيدج ليقدم الندم والاعتذار ويقول:

أنا بدأتها معاها من الصفر رغم إن من البداية مكنش فيه بينا أي حاجة غير السلام، بس الحقيقة حسيت فيها الجدعنة، ودي ميزة كبيرة أوي عند البنت، لقيت فيها السند وخوف الأم والأهل، لقيت معاها الدعم والمصابرة والتحمل، مع إن مفيش حاجة كانت تلزمها إنها تقف جنبي وتدعمني غير إنها جدعة بجد.

وللأسف معرفش أنا كنت فين وبفكر ازاي لمَّا زعلتها وغلطت فيها وقت عصبيتي، ودي مش رجولة على فكرة، أنا عارف إن اللي بقوله ده ممكن يضحك ناس كتير لكن على الأقل أبقى ارتحت وقولت الحقيقة واعترفت.

أنا زعلان إنها زعلانة، لأنها متستهلش تزعل أبدًا، وده مش كلام

حماسي بيتقال عشان فيه آلاف بتسمعني دلوقتي، اللي زيها تستاهل تفرح طول الوقت والله، قلبها طيب وحد لين، أنا بعترف إني مقدرتش وجودها بالشكل الكافي، على الأقل في آخر أيام علاقتنا، يمكن استحملت كتير على قبول إني أتغير، فأنا حسيت إني كده كويس و اتماديت بزيادة بجهلي، كان واجب عليا أتحملها زي ما كانت طول الوقت مستحملاني رغم حُبي ليها لكن ده دليل إنها حبتني وأخلصت أكتر.

أنا عشت طول عمري بدور عليها، ولمَّا أرتبط بيها ضيعتها مني.

أنا بترجاكم كلكم واحد واحد، تساعدوني في إنها ترجع، مش عايز حاجة غير وجودها في حياتي، محتاج أعتذرلها بالفعل مش مجرد كلمة بقولها، محتاج أعوضها عن كل لحظة وجع عاشتها بسببي أو من غيري، أرجوكم ساعدوني ف ده.

كان الطبيب حريصًا على أن لا يُقاطع أحدًا، وكان الحضور أشد حرصًا على الصمت والاستماع، لأنَّ المشهد كان غريب للغاية، والاعتر افات بالتقصير كانت صادقة حتى وإن كان الكلام لا يكفي، فنبرات الصوت كانت تصف بما يكفي.

طلب التحدث شابًا آخر، ولمجرد وصوله إلى الاستيدج، لم يسمع الحاضرين سوى صوت البكاء ولم يستطع الكلام، بسبب انهياره من البكاء.

فطلب الطبيب من المنظمين تهدأته، وأن يبقى مكانه، حتى نهاية المحاضرة.

عندما يصل الوجع إلى حد الكفاية فيكون البكاء هو المؤشر الوحيد والمُعلن عن ذلك.

خرجت أخرى وأمسكت بالمايك لتبدأ في الحديث، ولكنها طلبت الاستثناء، بأن تظهر تحت بؤرة الضوء، وأن تكون أمام الجميع دون تأثيرات صوتية أو بصرية، إنها القوة المطلقة في الاعتراف، إنه اليقين تجاه الحق.

لتقول: أنا اسمي، سلمى.

أنا عايزة أقولكم إن كان فيه شخص في حياتي أنا متأكدة من حبه، حتى لو هو مبيعرفش يعبر عن ده كويس، لأنه أوقات كتير بيكون عصبي، بس عارفة إنه بيحبني.

إحنا بعدنا عن بعض من أيام قبل فرحنا، وهو الغلطان، ومع ذلك أنا بقول قدامكم أنا هخرج من هنا وهروح أعتذر ليه، هعتذر عشان كان لازم اتحمله أكتر من كده، كان لازم اتحمله على قد حبه.

أنا عرفت إن أي شاب بيكون مضغوط أوي قبل الفرح يمكن أضعافنا كبنات، بتكون عليه التزامات كتير أوي ومطلوب منه ينجزها، يمكن كمان بيستلف فلوس عشان يعملها، عرفت إن عصبيته كانت ضغط عليه و أنا مش واخدة بالي أو عارفة بس مش مقدرة الحجم بالشكل الكافي.

الاعتذار مش لازم يكون بدافع الغلط، ممكن يكون عن عدم التحمل كمان، و أنا هعتذر له، أيًا كان مين فينا الغلطان.

فتعالت الصيحات داخل القاعة والتصفيق الحار.

ظهر بجانبها الطبيب، وهو يصفق لها، ووجهه مليئ بالابتسامة ليطلب من الذين تحدثوا، إن كانت لهم أي أسئلة أخرى.

❁❁❁

المواجهة

طلب الجميع الظهور تحت بؤرة الضوء، ليظهر كل من:

"مروة، كريم، هشام، فريدة، حاتم».

حينها اعتلت أصوات الحضور، من البهجة، وكل شخص كان يحمل في يداه شيء جعله يتطاير، فكان للورد النصيب الأكبر، ليتحدث الطبيب، ويصمت الجميع، وتنهمر دموع الفرحة من الذين عادوا بعد أن تفرقوا، وكل منهم مشبك يداه بالأخر.

ليقول الطبيب:

– على فكرة يا سادة الناس دول كانوا مرتبطين وعن حُب ومو اقف ووقت طويل دام ما بين معظمهم، لكن في لحظة غضب كل واحد فيهم خسر التاني، أيًا كان مين الخسران، يعني لو كل واحد فِضل يكابر زي ما هو ومعتذرش، كنا هنحضر وهنمشي النهاردة ومحدش منهم هيشوف التاني، وكانت انتهت العلاقات دي للأبد، بادروا وسارعوا بالاعتذار، للي بتحبوهم وبيحبوكم، متخسروش حد كان ليه فضل عليكم، ووجوده حلو في حياتكم.

كل شيء مقدور عليه، إلَّا البُعد، المُحب يَمرض، ولا يموت.

دائمًا أكتب عن الحُب ودائمًا يُعارضني البعض ويتهموني بالخيال

الجزائي، حتى رأيت ثبوت الحُب و أنا في طريقي للمحاضرة اليوم، مما اضطرني للتأخير، وأدركت بأن المُحب إذا أحب لا يتغير ولا يتبدل.

رأيت رجلًا في منتصف الشارع عمره يتجاوز الخمسة وخمسين عامًا، ظلَّ واقف بضع دقائق، ينظر إلى الأعلى، وأنا على دهشة وغرابة منه، بينما لحظات وخرجت سيدة من شرفة مُطلة على الشارع، وهي تُلوح بيديها كالأطفال مبتسمة، ومبتسم لها، ملوحًا بيده هو الآخر.

ثم اتجه في طريقه، وكل منهم تغمره سعادة كالأطفال، وكأنهم لم يكبروا ولم يشيخوا، وكأنهم مراهقان يعاصران أبهى مراحل الحُب، فأيقنت حينها، بأن الحب لا يكبر ولا يشيب ولا يموت، إلَّا إذا تخلله الإهمال.

أما عن هؤلاء، –وأشار إلى الذين بجانبه– كل الذين حاولوا الهروب من الحُب واعتزاله، كانوا أشد الناس شغفًا وحرصًا عليه في السابق.

❁❁❁

الختام (Conclusion)

أنا هختم المحاضرة دي، بدعوة عامة ليكم جيمعًا.

البهوات دول فرحهم بعد خمسة أيام، هتنورونا لو قدرتوا، أنا عايزكم تخرجوا توزعوا فرحة وسماح ولين قلب وطيب لسان على كل اللي هييجي في سكتكم أو القدر جمعه بيكم في يوم من الأيام.

مفيش حد وحده، على الأقل فيه ذكري قديمة ملازماه.

ثم بدأ الجميع في التقاط الصورة التذكارية مع الطبيب، لتوثيق تلك اللحظات، وبدأوا في الخروج بالتدريج.

شعر العجوز بأنه في أيامه الأخيرة، فقرر إنه يوصي إبنة الأخت التي ترافقه في المستشفى أن تذهب إلى المنزل، وتفتح غرفة الرسم الخاصة به لأول مَرة وحدها بعد فترة طويلة، ليخبرها بأن في ركن الغرفة توجد لوحة مغلفة تمامًا، هي أمانة ولا يجب أن تزيلي الغلاف حتى تصل إلى صاحبها، وفوق الغلاف ورقة بها عنوان صاحب الصورة، فاذهبي بالصورة إليه.

وأخذت الصورة، وظلَّت تجوب في الشوارع وتسأل عن هذا العنوان، حتى أخبرها أحد المارة بالعنوان، فكانت الصدمة!

وجدت زوجها عصام، حالة من التبلد وتجميد اللسان، عند الصدمة تتجمد الدموع، تتوقف مراكز الإحساس عن العمل، جميعهم يبكي، لا يجد أحدهم كلام يصف هول المنظر، وتزداد العاصفة عندما أُزيل الغلاف من فوق الصورة ليجدا بين يدهم صورة الإبنة الوحيدة، ليخبرها قائلًا:

أنا مش عارف أصدق، كنتي فين وجبتي الصورة منين؟ أنا لفيت عليكي الدنيا ومعرفتش أوصلك، وهي تبكي قائلة:

– الراجل الوحيد اللي كنت مانعني أشوفه، هو اللي رحب بيا وقت ما ضاقت بيا الدنيا، خالي وهو اللي رسم الصورة، ووصاني أجيبهالك، هو دلوقتي بين إيدين ربنا في المستشفى العام.

فسرعان ما أخذها وذهب إليه، وأمر بإخراجه للعلاج في مستشفى خاص، من أفضل مستشفيات مصر، حتى بدأ يسترد صحته شيئًا فشيء، وقال لها:

– أنا عندي فرح مهم هخلصه وهكون معاكي للأبد، فذهبت معه بعد ما أصر العجوز على ذلك، فكان القدر شاء أن يعوضهما كما عوض يعقوب بعدما فقد بصره وقرة عينه ابنه يوسف عليهم السلام جميعًا، ليجد ابنته ترتدي فستانًا أبيض، وهي تتزوج.

لم يجد أحد منهم طريقة يعبر بها عن هول المشهد، سوى البكاء والحُضن، حُضن الأم والأب وقتها، كان اختصار وتعويض عن كل مُر مَر.

❁❁❁❁❁❁

(خلصت الحدوتة)

كما نثق بكتابنا نثق بصوتك / هنا نصغي إليك!

الهالة للنشر والتوزيع
AL HALA PUBLISHING & DISTRIBUTION

تواصل معنا، ونحن نسمعك!
https://www.facebook.com/alhalapublishing
info@alhalapublishing.com